العتبة العلوية المقدسة

الأحنف بن قيس

أعظم المعاقين في الإسلام

الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي

الأحنف بن قيس

أعظم المعاقين في الإسلام

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ
وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب: ٥).

صدق الله العلي العظيم

الإهداء

لأخي العلامة المحقق السيد الجواد الشهرستاني
عرفاناً بسابق فضله، وتقديراً لجهوده في إحياء التراث
العربي الإسلامي، ودعمه الدائم لشخصيات
الفكر والثقافة..

المقدمة

الحمد لله الواصل الحمد بالنعم والنعم بالشكر، نحمده على آلائه كما نحمده على بلائه، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى أهل بيته معادن العلم وينابيع الحكم، وشجرة النبوة ومحط الرسالة، وعلى أصحابه المنتجبين الأخيار.

إن مواقف أصحاب الإمام أمير المؤمنين وعماله لهي جديرة بالتأمل وحافلة بالدروس والعبر، فهم أولائك الرجال الذين تربوا في كنف الإمام فنهلوا من علمه وتخرجوا من مدرسته، ومن أولئك الرجال الأحنف بن قيس الذي ترحم عليه الرسول الأعظم ~ بالرغم من أنه لم يره فقال: (اللهم اغفر للأحنف) لما بلغه عنه من حث قومه للدخول في الإسلام، فقد كان الأحنف رجلاً عالماً حكيماً وشجاعاً وصاحب رأي وحلم وحكمة وكان يعدُّ من دهاة العرب.

وقد شارك الأحنف بن قيس جميع حروب الإمام أمير المؤمنين إلا حرب الجمل إذ قال للإمام: إما إن أقاتل معك بمئتي محارب، وأما أن أكف عنك ستة آلاف سيقاتلون مع طلحة والزبير، فقال له الإمام أمير المؤمنين : اكفف عنا السنة آلاف أفضل فذهب الأحنف إليهم ودعاهم إلى القعود واعتزل بهم.

وكانت مواقفه في حياة الإمام وبعد شهادته تعبر عن عظيم شخصيته وثبات مواقفه برغم كل الظروف التي أحاطت به شخصياً أو التي مرت بها الأمة آنذاك فبعد شهادة الإمام أمير المؤمنين دخل يوماً على معاوية مع جماعة من أهل العراق فقال له: يا معاوية (.. والله إن القلوب التي أبغضناك بها يومئذ لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى أعناقنا ..).

والبحث الذي بين يديك أخي المؤمن الكريم لباحث قدير أجرى قلمه عن شخصية رائعة في تاريخ الأمة الإسلامية إن لها مواقفها الثابتة المتزنة رغم العوق الجسدي الذي أصابها، لتعلن للدنيا بان الإنسان بعقله وحكمته لا بجسمه، ودأب قسم الشؤون الفكرية والثقافية بتكليف من الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة بطباعة هذا الكتاب ونشره ضمن سلسلة أصحاب الإمام أمير المؤمنين .

وهذا البحث الحلقة الأولى من هذه السلسلة المباركة ليكون منهلاً عذبا للباحثين.

قسم الشؤون الفكرية والثقافية

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور عبد العزيز التويجري

المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)

تتصدَّر تنمية الثقافة الإسلامية على نحو شامل اهتمامات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ويدخل ضمن هذا الموضوع مجموعة من البرامج والأنشطة الإسلامية التي تنفذها المنظمة الإسلامية في إطار خطط عملها المتعاقبة.

ومواصلة للعمل من أجل تنمية الثقافة الإسلامية ونشرها ودعمها، قامت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بإصدار طائفة من الكتب، وتنظم مجموعة من الندوات والحلقات الدراسية قصد التعريف بمشاهير العلماء المسلمين، وبأعلام الثقافة الإسلامية الذين كان لهم الأثر البالغ في تقدم الفكر الإسلامي وإغنائه وازدهاره في مختلف أرجاء العالم.

ويتناول الكتاب الذي بين أيدينا اليوم التعريف بشخصية إسلامية جليلة لها حضورها المؤثر والمتميز في تاريخ الأمة السياسي والعسكري والفكري، ولاسيما في القيادة الحكيمة وضبط النفس، وفي الصبر على تحمل الآلام، والجلد والثبات والتغلب على الصعاب، وفي مواجهة أعباء الحياة بروح متفائلة وبقلب مطمئن وبنفس راضية بقضاء الله وقدره. ولقد خلفت هذه الشخصية أنصع الصفحات وأخلدها، وصارت مضرب المثل في الانتصار على الإعاقة الجسدية.

وفي إطار مساعدة المعاقين الذي تتضمنه خطة عمل المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ننشر هذا الكتاب باللغتين العربية والبوسنية عن الصحابي الجليل الأحنف بن قيس الذي يعد أشهر المعاقين في التاريخ الإسلامي تكريماً له وللثقافة

الإسلامية في البوسنة والهرسك. وهو أول كتاب يسلط الأضواء بصورة عامة، على سيرة أحد مشاهير المعاقين المسلمين والمجاهدين من الصحابة الذين عاصروا النبي ~ فكان هذا الصحابي المعاق الحكيم الذي انتصر على علله جميعاً، مما أصبح معه قدوة حسنة لمن عرفوه وعايشوه.

والكتاب من تأليف الباحث العراقي الدكتور صلاح مهدي الفرطوسي الخبير المنتدب من طرف المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة لدى البوسنة والهرسك سابقاً، وهو كتاب نافع إن شاء الله تعالى، خاصة وهو ينشر في البوسنة والهرسك التي عرفت مآس كثيرة من جرّاء الحروب العدوانية التي تعرضت لها مما خلف في المجتمع ضحايا كثيرين من المعاقين. ولعل الكتاب يخفف عبء المعاناة عن طائفة من هؤلاء، إذ يجدون فيه ما يملأ نفوسهم عزماً وإرادة وثقة بالنفس وإقبالاً على الحياة.

والله الموفق

توطئة

تقترب سنة ٢٠١٢م شيئاً فشيئاً من أسوار مدينة العلم والإيمان النجف الأشرف كي تفتح أبوابها على العالم، وتطلعهم على ثقافتها التي ضربت جذورها في أرضها قرابة ثلاثة عشر قرناً، وتحدثهم عن علمائها الأعلام، وعن شعرائها وأدبائها وكتابها وصحافتها، وعن أسباب مطاولتها كبريات المدن الإسلامية في جميع مسارب المعرفة، وعن مشاركتها وتأثيرها في كثير من الحركات الثورية والسياسية والثقافية والدينية التي شغلت التاريخ الإسلامي قرابة ألف عام.

وتقديراً لدورها المعرفي، وعمق تأثيرها الديني والسياسي والاجتماعي اتخذت منظمة المؤتمر الإسلامي قراراً باختيارها عاصمة للثقافة الإسلامية للسنة المذكورة بعد أن شعرت بأهميتها.

ولعل غالبية صفحات تراثها مازال مجهولاً عند أمة من الباحثين والمثقفين في أرجاء العالم بسبب الحصار الفكري والثقافي الذي فرض عليها خلال القرون الماضية على الرغم من انفتاحها واندفاع سكانها بجميع طبقاتهم وراء إخوانهم المسلمين في أحداثهم الكبرى.

وحقَّ لها أن تطاول المدن المقدسة في بلاد المسلمين منذ أن تشرفت بمرقد زوج البتول وأبي الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة، وأخي رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليهم الذي استمدت منه صمودها ومكانتها الدينية والثقافية.

والمدينة التي لم يكن قطرها يتجاوز الألف متر بكثير حتى العقد الرابع من القرن العشرين، اتسعت اتساعاً شمل جميع المسافة التي كانت تفصلها عن

الكوفة، وأصبح ظهرها الذي ضمَّ في ثراه أجداث مئات الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم جزءاً منها، كما ضمَّ وادي السلام فيها منذ قرابة ثلاثة عشر قرناً أجداث آلاف مؤلفة من العلماء والقادة والثوار، وآلاف مؤلفة أخر من الكتاب والشعراء والأدباء وغيرهم ممن رأى في تربتها نجاة من هول عذاب البرزخ.

والأحنف بن قيس الذي نتناول سيرته اليوم أصبح رفاته ضمن أحياء جانبها الشرقي، ولعله لا يبتعد عن مرقد الإمام أكثر من خمسة كيلومترات، وهو صحابي يجدر بالمثقف أو المؤرخ الاطلاع على جوانب من سيرته بسبب حجم مشاركته في الأحداث التي شغلت القرن الأول الهجري.

ولما كان الأحنف من كبار صحابة الإمام ، وكان له دوره الواضح في أحداث خلافته وما تلاها، فيحق لأمانة العتبة العلوية الشريفة أن تقدمه للعالم الإسلامي في هذه المناسبة.

المقدمة

الصفحات التي بين يديك هي في الأصل محاضرة ألقيتها في معهد المعاقين بمدينة سراييفو عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك سنة ١٩٩٨م، تناولت فيها سيرة الأحنف بن قيس أعظم المعاقين في الإسلام، وقد نالت استحساناً دفعني إلى الغوص في تفاصيلها، ولاسيما بعد أن تلفّتُ شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً فلم أرَ أمَّةً تزدحم بأصحاب الاحتياجات الخاصة كأمتنا الإسلامية التي طحنتها الأحداث، فما أكثر المعاقين فيها بسبب الحروب الرهيبة التي خاضتها من دون مبرِّر حقيقي يدعوها إلى خوضها، أو بسبب تفشي العلل والأمراض بمدنها وقصباتها لسوء توزيع ثرواتها، أو هدرها في أمور تبتعد عن الحكمة والعقل.

ولقد رأيت في سيرة الأحنف عبرة جديرة بالتأمل والاقتداء، إذ لم يكن شخصية عابرة في تاريخ الأمة السياسي والعسكري والفكري والاجتماعي فحسب، وإنما كان أيضاً واحداً من أبرز قادة الفتح الإسلامي الذين لمع نجمهم بعد وفاة الرسول الكريم ~ في المشرق، ومن أبرز الشخصيات السياسية التي شاركت في أحداث ذلك العصر، وكانت له مكانته ومنزلته ودوره في الحراك السياسي والعسكري الذي خاضته الأمة آنذاك، وقد امتدَّ تأثيره قروناً عدة، وما زالت أقواله وأفعاله وسيرته مثار دهشة واعتبار، ومصدر إشعاع روحي لمن يطلع عليها.

وعلى الرغم من مجمع العاهات الذي أحاط به منذ ولادته قبل الهجرة النبوية المباركة بما يقرب من عقدين، وحتى وفاته أواخر العقد السابع من القرن الأول الهجري، أو أوائل العقد الثامن منه، فقد وهبه الله سؤدداً، ومجداً، وحلماً،

وعزيمة، وقوة جنان، وشجاعة، وعزة نفس، وبعد نظر، وهي صفات كانت مثار إعجاب، واقتداء، وغبطة، وحسد، وتساؤل.

كان الأحنف خير ممثل للعقيدة التي آمن بها قولاً وفعلاً، إذ اعتنقها، وسار على هديها، وتمسك بقيمها، ودافع عنها بقوة حتى ضرب به المثل في كتب التاريخ والتراث، وما زال حلمه وتواضعه وسخاؤه وبعد نظره وحسن تصرفه موضع إعجاب وتجلّة، وهو قدوة حسنة، ومدرسة مكارم أخلاق استحقت بكل جدارة الذكر والتخليد، ولابد لمن يطلع على سيرته أن يتأثر بها، أو يؤخذ بشخصيته التي حيَّرت الناس.

وأزعم أن هذا البحث المتواضع هو أول دراسة — فيما أعلم — تسلط الضوء على سيرة عبقري من معاقي عصر صدر الإسلام كان في الصف الأول بين المجاهدين من الصحابة والتابعين.

وكان مقدرًا لهذا الجهد أن يطبع في مدينة سراييفو باللغتين العربية والبوسنية بعد أن تولاه برعايته أخي المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور عبد العزيز التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)، فتكرم بالتقديم له، وأمر بطبعه، وكان الرجل الطيب قد طوقني من قبل ومن بعد بأياد لا أنساها، ولكني أردت طيَّها كي تحسب في ميزان حسناته حفظه الله وجزاه خير الجزاء. ولكن قدر الله حال من دون ذلك بسبب ظروف انتقالي من البوسنة والهرسك إلى فرنسا في حينها، وضياع أصول الترجمة من أخي الأستاذ محمد موراهوفيتش سفير البوسنة الأسبق في المملكة الأردنية الهاشمية الذي كلف بترجمة الكتاب إلى اللغة البوسنية.

ويوم قدر لي الانتقال للتدريس في جامعة روتردام الإسلامية في هولندا جمعتني الجامعة بمجموعة فاضلة من العلماء الأتراك كان من بينهم الدكتور مصطفى أوزجان، وهو أستاذ جاد، وداعية تركي معروف، ومترجم بارع، وفي أثناء أحاديثنا عن وضعية المسلمين في العالم، وما ألمَّ بهم من كوارث بسبب تهور بعض الحكام وقصر نظرهم حدثته عن الأحنف، وأطلعته من بعد على مسودة الكتاب فأعجب بالشخصية أيما إعجاب، وسارع إلى ترجمة المسودة إلى اللغة التركية بعد أن شعر بأهمية مثل هذه الدراسات. ولم تسمح لي الظروف بطبعه أيضاً بسبب ابتعادي عن مراكز النشر، وكان لهذا الابتعاد فوائده، فما زلت أنقب في هذا الكتاب أو ذاك عن أخبار الأحنف، فأقف على روايات لم أطلع عليها من قبل تسد ثغرة أو توضح أمراً، وعلى الرغم من مرور ما يزيد على عقد من الزمان على المسودة التي دفعتها أول مرة إلى معالي المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم (إيسيسكو) للنظر فيها، فإن الحاجة مازالت قائمة لصدور مثل هذا النوع من الكتب بسبب ازدياد ذوي الحاجات الخاصة في بلادنا نتيجة للحروب التي مازالت تجتاحها، لأسباب يعلم الله أنه كان بالإمكان تجاوزها من دون سفك قطرة دم واحدة، ولكنه النزق والغرور، وشهوة الحكم، وضيق الأفق، يضاف إلى هذا انتشار الأعمال الإرهابية فيها، وما جرَّته من محن وكوارث على المسلمين خارج بلدانهم وداخلها وأدت إلى مضاعفة أعداد المعاقين فيها أيضاً.

ويهمني في الختام أن أتقدم بالشكر الجزيل لولدنا حيدر نعمة الخفاجي الذي تكرم علي بشراء بعض مصادر البحث من مصر، وتجشم متاعب حملها إلى هولندا، ولولدنا علي محمد جواد الطريحي الذي تحمل أمر إخراج الكتاب غير مرَّة

بسبب جديد المعلومات التي وقفت عليها في أحيان مختلفة، وقائمة الشكر تطول، والفضل محتسب لأهله.

ولكن العرفان يدعوني إلى تقديم صادق الشكر والتقدير والامتنان إلى الأخوة رئيس الأمانة العامة للعتبة العلوية المقدسة وأعضائها للرعاية الكريمة التي شملوني بها في غير مناسبة، وعلى تبنيهم طبع هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل أن يحفظهم ويديم سعدهم في خدمة ضريح أمير المؤمنين .

وهو الله أسأله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ويحتسبه لي ولجميع من ساعدني على إخراجه، وأن يخفف امتحان العوق على أصحابه، ويدفعهم إلى التفاؤل بالحياة والمشاركة فيها، وأن ينفع به المسلمين إنه على كل شيء قدير.

الصقر في ذمة الخلود

قدر لثوية الكوفة، وهي بقعة تقع في جانبها الغربي باتجاه مدينة النجف الأشرف أن تكون مثوىً لكثير من الصحابة والتابعين، غير أن الأحداث طوتها منذ قرون عدَّة، وخاصة بعد تحول الدفن منها منذ أواخر القرن الثاني الهجري على حد التقريب إلى جوار أمير المؤمنين ، وإلى وادي السلام من بعد، وقد نسي اسمها اليوم، ودرست قبورها، وأصبحت أثراً في كتب معجمات اللغة والبلدان، ثم غزاها العمران فأمست جزءاً من النجف، ولم يبق فيها اليوم من الآثار إلا قبر كميل بن زياد النخعي صاحب الإمام عليٍّ .

ولقد شهدت هذه البقعة وداع مئات من الصحابة والتابعين إلى مثواهم الأخير كان من بينهم الأحنف بن قيس، ففي يوم من أيام العقدين السابع أو الثامن من القرن الأول الهجري وافاه أجله بعد أن قارب الثمانين أو تجاوزها، فتسارع حشد من البصريين والكوفيين خلف جنازته لوداعه، وتقدم الحشد من غير رداء مصعب بن الزبير والي العراق لأخيه عبد الله كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٧/٧ ورافقه شيوخ المصرين ووجوههما، وما إن تمت مراسيم الوداع المهيب حتى وقف أحدهم على قبر ذلك الشيخ، وقال مخاطباً صاحبه: (كنت والله لا تحسد غنيّاً، ولا تحَقِّرُ فقيراً)، وشقَّت الجموع امرأة طاعنة في السن، ووقفت على القبر وقالت: (إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، نسأل الله الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك أن يوسع لك في قبرك، وأن يجعل سبيل الخير سبيلك ودليل الرشاد دليلك)، ثم أقبلت بوجهها على الحشد وقالت: (معشر

الناس إن أولياء الله في بلاده شهود على عباده، أما والله لقد عاش صاحب القبر حميداً، ومات فقيداً سعيداً، وكان عظيم السلم، فاضل الحِلم، وكان شريفاً بين الرجال، وعلى الأرامل عطوفاً، وفي العشيرة مُسَوَّداً، وإلى الخلفاء موفداً، ولقد كانوا لقوله من المستمعين ولرأيه من المُتَّبعين).

أما المرأة فهي في بيان الجاحظ ٣٠٢/٢ فرغانة بنت أوس بن حجر الشاعر الجاهلي المعروف، وأما اليوم فلم يخطر على بال التاريخ تسجيله، وأما السنة فقد اختلف فيها اختلافاً بيِّناً، فقيل: إنها سنة سبع وستين للهجرة، وقد رجحت عند بعضهم، وقد تكون راجحة لأن رحيله كان بعد مصرع المختار الثقفي رضوان الله عليه.

وقد يكون رحيله بعد هذا، وهو راجح أيضاً لأن ابن قتيبة في معارفه ٤٢٤ قال: (وبقي الأحنف إلى زمن مصعب بن الزبير، فخرج معه إلى الكوفة فمات بها وقد كبر جدّاً). وذكر ابن سعد في طبقاته ٧/٧ أنه وفد على مصعب بالكوفة، وتكرر خبر وفادته عند البخاري في التاريخ الكبير ٥٠/٢، ودليل وفادته يعني أن وفاته تأخرت عن زمن دخول مصعب بن الزبير الكوفة سنة سبع وستين.

وذكر أنه رحل سنة ثمان وستين، وهو راجح أيضاً فقد روى الطبري في تاريخه ٤٩٧/٣ وابن الأثير في كامله ٢٨٠/٤ أن عبد الله بن الزبير عزل مصعباً سنة سبع وستين وبعث مكانه ولده حمزة، وبقي معزولاً عنها سنة، فكتب الأحنف لعبد الله يطلب منه عزل ولده وإعادة مصعب إلى البصرة فاستجاب لطلبه، وإذا صحت الرواية، فإنها تخبر بأنه كان حيّاً سنة ثمان وستين.

وقيل: إنها كانت سنة إحدى وسبعين، وقيل: سبع وسبعين، والأخيرة لا تصح، وقد ذكرها ابن خلكان في وفياته ٢/ ٥٠ كما ذكر السابقات، لأن ابن الزبير الذي شارك في تشييعه قتل سنة اثنتين وسبعين للهجرة كما ذكر غير مؤرخ منهم المسعودي في مروجه ٣/ ١١٥.

وقد ترجح وفاته في ما بين سنة ٦٩ و٧١ للهجرة أكثر من غيرها، لأن ابن قتيبة ذكر في ٤٢٣ من معارفه أن الأحنف فخر في «يوم الجفرة» بخاله الأخطل بن قرط الذي عرف بشجاعته، فقال: (ومن له خال مثل خالي!؟)، وفخره يعني إدراكه ذلك اليوم أو مشاركته فيه على الرغم من كبر سنه، والجفرة: موضع بالبصرة، كانت فيه وقعة زمن عبد الملك ابن مروان بين أتباعه وأتباع مصعب بن الزبير، وقد اختلف في زمانها ما بين سنة ٦٩ إلى سنة ٧١ كما ورد في معجم البلدان ٢/ ١٤٧.

وأما موضع قبره فقد طواه الزمن بردائه كما طوى غيره، وأصبح أثراً بعد عين، ولكن ابن قتيبة ذكر في معارفه ٤٢٤ عن الأصمعي أنه دفن بالقرب من قبر زياد بن أبيه، وقبر زياد في الثويَّة، وإلى ذلك ذهب ابن خلكان أيضاً في وفياته ٢/ ٥٠٤.

أما المرأة فلم تبالغ ولم تبتعد عن الحق، فقد كانت ترثي حليم العرب، وأعظم الم صقر المسلمين في السلم والحرب.

ويبدو أنه بسبب هول وقع رحيله وعظم منزلته بين الناس خيل لأحدهم أنه قد وسِّع له في لحده، فقد ذكر ابن خلكان في وفياته ٢/ ٥٠٤ أن عبد الرحمن بن عمارة بن عقبة بن أبي معيط قال: (حضرت جنازة الأحنف بن

قيس بالكوفة، فكنت فيمن نزل قبره، فلما سويته رأيته قد فسح له مَدّ بصري، فأخبرت بذلك أصحابي، فلم يروا ما رأيت).

مدرسة مكارم الأخلاق

يراودني يقين أن من يطلع على سيرة الأحنف بن قيس لابد أن تأخذه الحيرة كل مأخذ، فكيف لرجل بتلك العاهات التي سنأتي على ذكرها، يتحلّى بصفات يصعب اجتماعها في شخص واحد، ويبلغ ما بلغ!؟

تُرى في أية مدرسة تخرج هذا الرجل العجيب؟

أهي مدرسة الجاهلية التي جمعت بين كثير من الطالح وقليل من الصالح منحته القدرة على التأمل في مفاسدها والصبر على ظلماتها والتحلّي بمحاسنها؟

أم هو أفق الصحراء الذي لا نهاية له، ووحشته وجماله، وما يمكن أن يرسمه من رؤى وأخيلة في لياليه المقمرة أو المعتمة، منحه بعد نظر، وصلابة عود، وصبر ومصابرة؟

أم هي بعض مكارم أخلاق العصر التي أقرها الإسلام، وحثَّ على اتباعها، أعجب بها الأحنف واقتدى بها؟

أم هو قيس بن عاصم المنقري ـ وجه تميم ـ أشفق على الطفل اليتيم المعاق فمنحه شيئاً من عطفه، وقرَّبه إلى مجلسه، فراقب، وتأمل، واقتدى.

أم هو مجتمع النبوة الذي أدركه وهو في عنفوان شبابه، تأثر به، وتربَّى على مبادئه، فصنع منه رجلاً كان عبرة، ومضرب مثل، وقدوة صالحة؟

أم هي الأحداث الجسام، والحروب التي خاض غمارها، والجيوش التي قادها أنضجته على نارٍ هادئةٍ وخلقت منه قائداً هماماً، وسياسيّاً محنكاً كان من شخصيات العصر العظام؟

أم هي الفتن التي عاصرها، واضطره الحق إلى الانحياز فيها خلقت منه رجلاً يحسب حسابه في أوقات الأزمات.

أم هي العلة التي كان يجب أن تدفع به إلى الاستكانة والانزواء والعزلة والانطواء وجد فيها طَهوراً لنفسه حين نازعته فاستطاع نزعها، حتى ضُرِبَ به المثل في شدة سلطانه عليها؟

أم هو خليط من كل هذا صنع منه رجلاً هو بكل المقاييس من مفاخر لإسلام الكبرى، إن لم يكن من مفاخر الإنسانية جمعاء؟

كان قبل الإسلام مبهوراً بصاحبه قيس الذي وجد فيه مدرسة للصبر والحلم والسياسة وبعد النظر في مجتمع تحكمه العصبية وتسيره الأهواء والنوازع، ويوم جاء الإسلام أحدث ثورة قلبته رأساً على عقب.

ويوم دعيت قبيلته إلى الإسلام واطَّلع على بعض قيمه السماوية السمحة استقبله عقله الناشط أعظم استقبال، فأسلم، ودعا قومه إلى الإسلام بعد أن أدهشه بمبادئه، إذ وجد فيه ما لم يجده في المجتمع الذي قتل أباه من دون رحمة، وتركه لليتم ومجمع العاهات في رعاية أم غريبة عن القوم، فآمن بكل جوارحه، واتبع هداه، حتى أن جميع ما أُثِرَ عنه هو من خلق الإسلام الأرحب ومدرسته، تستطيع مقارنة غالبيته بسنن الرسول الكريم وأقوال أهل بيته صلوات الله وسلامه عليهم، والأبرار من صحابته رضوان الله عليهم.

وعجيب عدم جمع أقوال الرجل على الرغم مما فيها من دروس وعبر، ولقد كان بودي لَمَّ ما تناثر منها في كتب تراثنا لبلاغتها وشدة تأثيرها، فكم من مرة وقفت فيها مبهوراً أمام حكمته، وبعد نظره، وشدة أناته في غضبه، إلا أن ما صبوت إليه يوم قررتُ كان بعيد المنال وسط عجمة اللسان، وقلة الحيلة، ونزر

المتيسر من المصادر، ولم أستطع الانتظار بعد أن طوَّفت مع الرجل من المهد إلى اللحد، فأخذني إلى عالمه الرحب، ووجدته يتمشى معي في فيافي المغترب وصحاريه، وكلما صدمني موقف من هذا أو ذاك أجده بالمرصاد فأتأسى وأقتدي.

ولعل ما فاتني من تراثه الذي حفظته الأجيال ليس بكثير بعد أن راجعت أمهات كتب التاريخ والتراث والأدب، وكتب الرجال والأنساب والتفسير والحديث والمعجمات.

الحكيم الذي تسلط على نفسه

كان يعرف قدر نفسه فتسلط عليها وكبح جماحها بصبر الجمل الذي قطع به الصحراء إلى أقاصي الشرق، أو بعزيمته التي قاد بها جيوش الفتح إلى النصر المؤزر، وحينما رأى انبهار الناس بحلمه وأناته قال لهم: (والله أني لأجد ما تجدون، ولكني صبور)، كما جاء في الوفيات ٢/ ٥٠١ وغيره، لأن قدوته قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾، ولأنه تعلم في مدرسة مكارم الأخلاق أن الصبر مفتاح الفرج فدخل الملعب من أوسع الأبواب.

وكان يعلم أن من ترفع عن الزبد هو الذي يستحق المكانة السامية في المجتمع، لذا قال حينما صلّى على حارثة بن قدامة السعدي أحد سادة البصرة المشهورين: (رحمك الله كنت لا تحسد غنيّاً ولا تحقِر فقيراً) كما روى ابن عبد ربه في عقده ٢/ ٣٠٩.

وكان بعض قصار النظر يرون في الحِلم ذُلاً، ولكنه رأى فيه عزّاً وسؤدداً لا يستبدله بأموال الدنيا على الرغم من مرارته في كثير من الأحيان، فقال: (ما يسرني بنصيبي من الذُّلِ حُمْرُ النِّعم)، فقال له أحدهم: (كيف تقول هذا وأنت أعز العرب؟) قال: (إن الناس يرون الحِلم ذُلاً فقلت ما قلت على ما يعلمون)، وقال لأحدهم وقد طلب منه أن يعلمه الحِلم كما ذكر صاحب العقد في ٢/ ٢٥٨ من عقده: (إنه الذُّل يا ابن أخي أتصبر عليه)، وقال في أخرى ذكرها ابن خلكان في وفياته ٢/ ٥٠١: (هو الذل مع الصبر).

ويبدو أنه ما كان ينخدع في قرارة نفسه بقولهم: (ذهب الأحنف بالحِلم)، أو (أحلم من الأحنف)، وما إلى ذلك من أقوال، فالدم يفور في عروقه أحياناً، والثورة

تبلغ مداها من نفسه في أحيان أخر، لذا قال: (لست بحليم، ولكني أتحالم)، وكأنَّ التَّحالم ليس أوسع أبواب الحِلم.

كان يملك قدرة غريبة على تجرع غيظه أحياناً (مخافة ما هو أشد منه) على حدِّ قوله، لأنه وجد الحِلمَ في كثير من المواقف (أنصر له من الرجال)، كما جاء في الوفيات ٢/٥٠١، فتمسك به، وساد بحسن سياسته، وبعد نظره.

وكان من المؤمنين بقوة العصبة حتى وإن كانت على خطأ في بعض الأحيان حتى قال: (لو عاب قومي الماء ما شربته) على أنه لم يكن تبعاً لهم، ولكنها الحكمة، فهو يُرى فيهم كأصغرهم، لأن التواضع طبع فيه، فعرف كيف يسوس قومه ويقودهم إلى ذرى المجد في الحرب والسلم، وعرف كيف يجنبهم مخاطر لا يعلم عواقبها إلا الله على ما سيتبين لنا.

المعاق الذي انتصر على عِلَّه

والمتتبع لحياة الرجل وسيرته يلحظ أنه ترعرع في تربة كان بالإمكان أن تتقاذفه في مهاويها وظلماتها، ولقد قذفت به إلى شرِّها، ولكنه تأثر بخيرها واقتدى، حتى أن عِلَّتي اليتم والعَوَقِ لم تتركا أثراً سلبيّاً في نفسه يدفعه إلى الشعور بالنقص والحرمان، إذ تغلب عليهما فسما إلى ذُرى المجد.

وإذا كان قد تجرع امتحان عوق الطفولة لأنه ولد به، فإنه تجرع بنفس راَضيَّةٍ أيضاً عوق الشباب والكهولة يوم فقد إحدى عينيه في إحدى معارك الفتح بسمرقند كما ذكر ابن حبيب في محبره ٣٠٣، ويوم أصابه الجدري زاد من تشويهه، وترك آثاره على وجهه.

ويوم أرادت تميم أن تُدِلَّ عليه في تسويدها له بعد أن بلغ منزلة لم يبلغها أحد من القوم، ردهم ردَّ من يعرف قدر نفسه وبأسلوبٍ حكيم لا يثير أحدهم، فلو لم يكن جديراً بالسيادة ما فاز بها، وكم من سيد مسوَّد في البصرة بفضل جَدِّه وسيرته وحسن أناته وكرم فعاله لا بسبب قبيلة أو عصبة، ولهم في شبل بن معبد البُجَلي أحد سادة البصرة الذي سودته أفعاله على الرغم من عدم وجود بُجَليٍّ فيها غيره، لأن السيادة ليست إرثاً، والذي يفوز بها لابد أن يتمتع بشمائل ترشحه إليها، من كرم، وتواضع، وحكمة، وشجاعة، وإقدام، وبعد نظر، وتصابر على المكاره، وعلى هذا فليست تميم هي التي سوَّت الأحنف، وإنما سادت به حتى أصبح من مفاخرها، تروي عنه القصص والأساطير، وتتحدث عنه بكل فخر واعتزاز.

القدوة الحسنة

وتذكر لنا كتب التراث بعض الأخبار التي يبدو منها شدة تأثر الأحنف في صغره بقيس بن عاصم المنقري رأس تميم وحليمها الذي يضرب بحلمه المثل في العصر الجاهلي، ورأسها في وفادتها على الرسول الكريم ~الذي كرَّمه ووسَّع له في مجلسه، وأسبغ عليه صفة: «سيد أهل الوبر»، كما ذكر ابن قتيبة في معارفه ٣٠١، وليس خافياً أثر القدوة المبكرة في النفس الإنسانية، فقد سُئل الأحنف مرة عن المنهل الذي نهل منه، فقال: (تعلمت الحلم من قيس بن عاصم)، بينما هو قاعد بفنائه مُحْتَبٍ بكسائه أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف، وقالت له: (هذا ابنك قتله ابن أخيك، فوالله ما حلَّ حبوته حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس فقال له: قُم فأطلق ابن عمك ووارِ أخاك، واحمل إلى أمه مائةً من الإبل فإنها غريبة، ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعت رحمك، وأقللت عددك لا يبعد الله غيرك). وقد وردت الرواية السابقة في البيان ٢/ ٢٣ والعيون ١/ ٢٨٦ والعقد ٢/ ٢٥٨ والوفيات ٢/ ٥٠١ وغيرها.

ولابد أن المشهد أدهش الفتى، فتأثر به، ورسخ في أعماق نفسه، إذ رأى والداً فَقَدَ وَلَدَه بيد ابن أخيه، والوالد سَيِّد قومه، فماذا يفعل؟ وكيف يتصرف؟ تُرى، هل سيأمر بالقصاص، وهو من حقه، ولاسيما أنه في بيئة تَعُدُّ الأخذَ بالثأر من مفاخرها، أو أنه سيعفو عفو كريم مقتدر؟ وأزعم - إن صحت الرواية- أن قيساً لم يُحلَّ حبوته، ولم يقطع كلامه وتماسك كي يمنح نفسه فرصة على التصابُر واتخاذ القرار الصعب، فسجل موقفاً ما زال قدوة صالحة وعبرة تعتبر بها الأجيال،

فاعتبر بها الفتى المعاق، ورسخت في وجدانه، ولعله منذ ذلك اليوم تَطَلَّع إلى المكانة التي احتلها ذلك المنقري الصالح بين قومه.

وعن مدى تأثر الأحنف بقيس ذكر الجاحظ رواية في بيانه ١/٥٣ مفادها أنه دخل على معاوية فأشار عليه بالجلوس في مجلس أراد تكريمه به، ولكنه اختار مجلساً قصيّاً، فلما سأله عما منعه من الجلوس في المكان الذي حباه به قال: (إنما فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري وَلَده قوله: لا تغش السلطان حتى يَمَلَّكَ، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فراش ولا وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلين فإنه عسى أن يأتي من هو أولى بذلك المجلس فتقام له، فيكون قيامك زيادة له، ونقصاناً عليك)، وقريب من ذلك ما رواه ابن عبد ربه في عقده ٢/٤٢٢.

ولا أستبعد أيضاً أنه قد تأثر بعمه المتمشمش أذ قيل: إنه كان يفضله بالحِلم، ومما رواه ابن قتيبة عنه في عيونه ٧/٩٧ أن أبا موسى الأشعري أمره أن يقسم خيلاً في تميم، فقسمها، فقال له رجل من بني سعد – وهم فخذ من تميم منهم المتمشمس وابن أخيه –: (ما منعك أن تعطيني فرساً؟ ووثب عليه فَمَرَشَ وجهه، فقام إليه القوم ليقتصوّا منه، فقال: دعوني وإياه إني لا أُعان على واحدٍ، ثم انطلق به إلى أبي موسى، فلما رآه سأله عما بوجهه فقال: دع هذا ولكن ابن عمي ساخطٌ فاحمله على فرسٍ ففعل)، وقد سمَّاه ابن قتيبة في معارفه ٤٢٤ (المتشمِّس)، ولا أظنه من الأسماء الشَّائعة عند العرب، ولعله تحريف طباعيٌّ، ويبدو أنَّ الأحنف لم يكن بعيداً عن عمِّه هذا في مراحل من حياته بل كان قريباً منه، ولعله كان بكفالته بعد أن فَقَدَ أباه، وقد كانا من سكنة البصرة، واشتركا سوية في معارك الفتح تحت إمرة أبي موسى الأشعري على ما سيتبين

لنا، وذكر ابن قتيبة في معارفه ٤٢٤ أيضاً أكثر من هذا فقال رواية عن أبي اليقظان: وقيل: أتى هو – أي الأحنف – والمتشمس (مسيلمة الكذّاب، ليسمعا منه، فلمّا خرجا، قال الأحنف: كيف تراه؟ قال: أراه كذّاباً. قال: وما يؤمنك أن أرجع إليه فأخبره بمقالتك؟ قال: إذن أخبره أنّك قلت، وأحالفك – يريد أن أحلف وتحلف – . ثم أسلم المتشمس، وحسن إسلامه).

ومما أفاده من عمٍّ له لعله السابق الذكر هو القدرة على كتم النوازل والمصائب، جاء في الوفيات ٢/ ٥٠٥ أن الأحنف قال: (شكوت إلى عمي مصيبة نزلت بي فأسكتني ثلاثاً، ثم قال لي: يا أبا بحر، لا تشك الذي نزل بك إلى مخلوق، فإنما هو صديق تسوءه أو عدوّ تسره).

وذكر له ابن قتيبة في المصدر السابق عمّاً آخر أصغر من المتمشمش اسمه صعصعة بن معاوية، وقال: كان سيِّد بني تميم في خلافة معاوية، (وفرسه الطُّرة اشتراها بتسعين ألف درهم).

وذكر ابن سعد في طبقاته ٧/ ٩٣ أنه روى عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذر الغفاري، وقد وقفت على رواية له عن عمر بن الخطاب في البيان ٢/ ١٨٨ وذيل الأمالي هي قوله: (قال لي عمر: يا أحنف، من كثر ضحكه قلّت هيبته، ومن مزح استُخِفَّ به، ومن كثر كلامه كثر سَقْطُهُ، ومن كثر سقطه قلَّ حياؤه، ومن قلَّ حياؤه مات قلبه)، ومما رواه عن أبي ذرٍّ ما ذكره الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام قسم عهد الخلفاء الراشدين ٤١٠ قوله: (رأيت أبا ذرٍّ قام بالمدينة على ملأ من قريش فقال: بشِّر الكَنَّازين برَضْفٍ يُحمى عليه فيوضع على حَلَمَة ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ (النغض: أعلى الكتف) كتفه، فما رأيت أحداً ردَّ عليه شيئاً).

وسنراه يبذل ماله بل يرهن نفسه كي يطفئ الفتنة التي تأججت في البصرة بين قبيلته تميم وبين جيرانهم الأزد على ما سيأتي ذكره، أما تأثره بالإمام علي فتستطيع أن تلحظه من تأثر أقواله بأقواله لغة ومعنىً، ومن ولائه له حيّاً وميتاً على ما سيتبين لنا لاحقاً.

وليست العبرة في أن ترى وتسمع، وإنما هي في الاعتبار، ولو لم يعتبر الأحنف لما وصل إلى المكانة التي خلّدته بين عظماء الإسلام.

كان الرجل الفذُّ يعرف قدر نفسه، ومكانته، لذا كان يصدر على الدوام عن عقل راجح في تصرفه، وفي كل خطوة يخطوها حتى في اختيار مجلسه حين يدعى أو يزور أحداً أو يزارُ، وتستطيع تقدير أناته من قوله: (ما جلست مجلساً فخِفتُ أن أُقام عنه لغيري)، ومن قوله: (لأن أدعى من بعيد فأجيبُ أحبُّ إليَّ من أن أُقصى من قريبٍ)، وكان يحسن الاحتفاء بكل من يقصده في مجلسه، ومما ذكره عنه الأصمعي أنه (إذا أتاه إنسان وسَّع له، فإن لم يجد موضعاً تحرك ليريَهُ أنَّه يُوَسِّعُ له).

تواضع من غير ضعف

كان الأحنف متواضعاً حتى تخاله لا يعرف التكبر، سمحاً واسع الصدر، ومن طريف ما يروى عن سماحته أن أحدهم شتمه وألحَّ في الشتيمة، فلما سكت قال له الأحنف: (يا ابن أخي هل لك في الغداء فإنك منذ اليوم تحدو بجمل ثِقال)، وتلاحظ أن الرجل لم يكن من أقران الأحنف، وإنما هو من أقران أبنائه، إذ كان خطابه له: يا ابن أخي.

وشتمه آخر، وهو في طريقه إلى مضارب قومه، وألح في الشتيمة أيضاً، فلما اقترب الأحنف من المضارب، طلب من الرجل أن يقول ما عنده حتى يكتفي ويكفَّ، لا خوفاً منه، ولكن خوفاً عليه بسبب اقترابه من مضارب قومه.

ومن طريف ما يروى أيضاً أن أحدهم شتمه، فسكت عنه، ثم عاد، فسكت عنه أيضاً، فقال الرجل: (وا لَهفاه، ما يمنعه من أن يردَّ عليَّ إلا هواني عليه).

وجاء في البداية والنهاية ٢١٣/٨ أيضاً أن أحدهم أغلظ له بالكلام فقال: (لئن قلت لي واحدةً لتَسْمَعَنَّ عشراً)، ولكن الأحنف أراد أن يسكته ويخجله ويمتصَّ غضبه، فأجابه: (إن قلت عشراً لا تسمع واحدةً)، وهكذا كان يصدر عن روح الإسلام السمحة فاستحق السيادة والخلود.

ولعل شهادة الحسن البصري – الذي كان من جنوده – التي نقلها ابن سعد في طبقاته ٩٥/٧ تبين لنا فضل الرجل ومنزلته إذ قال: (ما رأيت شريف قوم أفضل من الأحنف)، والقول في تهذيب ابن حجر ١٦٧/١ أيضاً، وشهد له عمر بن الخطاب بالإيمان والعلم فقال: (هو مؤمن عليم اللسان)، وقد ذكرها ابن سعد في طبقاته أيضاً، ومما رواه العجلي في كتابه معرفة الثقات ٢١٢/١ أن عمر بن

الخطاب قال له : (ويحك يا أحنف، لما رأيتك ازدريتك، فلما نطقت، قلت : لعله منافق، صنع لسان، فلما اختبرتك حمدتك ولذلك حبستك، حبسه عمر سنة يختبره، فقال عمر : هذا والله السيد).

وقد عدَّه اليعقوبي في تاريخه ٢/١٥٣ ضمن مجموعة من الفقهاء البارزين في أيام معاوية، في مقدمتهم عبد الله بن عباس.

ومن طريف ما ذكر عن تواضعه أنه كان واقفاً على باب دار ينتظر الإذن بالدخول فمرَّت به امرأة تحمل قربة ماء وضعتها بجانبه وقالت : (احفظ قربتي حتى أعود، ومضت)، ولما أذن له بالدخول قال : (إن معي وديعةً، وأقام حتى جاءت)، ولا بد أن المرأة حينما رأته رأت رجلاً بسيط المظهر تبدو عليه إمارات التواضع فلم تتردَّد في ترك قربتها، وأبى من جانبه إلا أن يكون عند حسن ظنها.

ولم تكن عاهاته – على كثرتها – مصدر قلق أو شعور بالنقص بالنسبة له، بل لم يعبأ بمن يهمزه بها، قال له أحدهم مرة : (تسمع بالمعيدي لا أن تراه)، وكأنه أراد أن يجيب الرجل بدرس لا ينساه ولكن بلغة بعيدة عن الغضب والانفعال إذ سأله عما عابه فيه ؟ فقال : (الدمامة والقصر)، أي : أن الرجل عاب عليه أمراً ليس للأحنف يدٌ فيه لأنه قدر الله ولا رادّ لقضائه، فكان جوابه حكمة وموعظة إذ قال : (عبت عليَّ ما لم أؤامر عليه)، أي : أشاور.

ولم يعرف عنه الرياء أو النفاق في أشدِّ المواقف، وكان لا يتورع عن إفحام المنافقين مهما بلغت منزلتهم، ومما يذكر له أن أحدهم أطرى يزيداً في مجلس أبيه معاوية، فلما خرج ذمهما أمام الأحنف أقبح ذمٍّ، لأنه كان يعلم موقف الأحنف منهما فأراد أن يتملَّقه، ولكن الأحنف أراد أن يكون ردَّه على الرجل درساً آخر

من دروس مكارم الأخلاق فقال له على ما ذكر الجاحظ في بيانه ١٤٩/٢ : (مه، فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً)، والحكاية في الوفيات ٥٠٠/٢ أيضاً.

واغتاب قوم رجلاً في حضرته فقال : (ما لكم وماله، يأكل رزقه، ويكفي قرنه، وتحمل الأرض ثقله).

وهو في مواقفه يعرف التفريق بين صغار القوم وكبارهم، فيحلم حتى يتهم بالضعف مع الصغار، ويتعاظم أحياناً أمام الكبار حتى يبدو كأن لا أكبر منه بين الحضور، ومن المواقف التي ذكرت في طبقات ابن سعد ٩٤/٧ أن الخليفة عمر بن الخطاب ذمَّ قبيلة تميم، والأحنف في مجلسه، فاستأذن بالكلام بطريقته الذكية المتواضعة الحكيمة، فأذن له فقال : (إنك ذكرت بني تميم فعممتهم بالذمِّ، وإنما هم من الناس فيهم الصالح والطالح)، فصدَّقه عمر واستغلها آخر - وكان من مناوئي الأحنف - فطلب الإذن، ولكن عمر قال له : (اجلس قد كفاكم سيِّدكم الأحنف).

إنا لا نأخذ على معونتنا أجراً

ومن المواقف الإنسانية العظيمة التي تحسب له أنه ما كان يفرق بين عربي وأعجمي، في وقت كان الحكم الأموي يفرق بينهما أقبح تفريق حتى كأن الأمة في الإسلام ليست متساوية في الحقوق والواجبات، أما الأحنف فكان لا يتأخر عن المساعدة، كما فعل مع صاحب الأهواز الذي قصده كي يستنجد به عند عبيد الله بن زياد والي العراق آنذاك الذي ظلمه في الخراج، فكلم ابن زياد فحطَّ عن الرجل ما أثقله، وأراد صاحب الأهواز أن يردَّ معروف الأحنف فأهداه هدايا كثيرة إلا أن الأحنف ردها ردّاً طيباً وقال له: (إنا لا نأخذ على معونتنا أجراً).

ولم يتأخر أيضاً في الدفاع عن إخوانه الموالي، وله موقف ذكره ابن عبد ربه في عقده ٤١٦/٣ إن صحَّ فإنه لابد أن يحتسب في ميزان حسناته ويثقله، فقد دعاه معاوية يوماً ودعا معه سُمرة بن جُندُب أحد وجوه العراق، واستشارهما في قتل شطر الموالي، وقال معللاً سبب تفكيره بهذا الأمر: (إني رأيت هذه الحمراء قد كثرت، وأراها قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون)، وكأن الدولة ليست دولة الإسلام الذي لم يفرق بين عربي أو عجمي إلا بالتقوى، أما سمرة فقال: (اجعلها لي أيها الأمير فأنا أتولى منهم ذلك وأبلغ ما تريد)، وأما الأحنف فقد عالج الموقف بالحكمة التي عرف بها فدفع شرّاً عظيماً إذ قال له: (أرى أن نفسي لا تطيب بقتل أخي لأمي، وخالي، ومولاي، وقد شاركناهم وشاركونا في النسب، فظننت أني أقتل عنهم)، فأمرهما معاوية بالانصراف كي يتخذ قراراً بما هو قادم عليه، يقول الأحنف: (فقمنا عنه، وأنا

خائف، وأتيت أهلي حزيناً، فلما كان الغداة أرسل لي، فعلمت أنه أخذ برأيي، وترك رأي سمرة).

السؤدد الذي حيَّر الناس

كان الأحنف من الكاظمين الغيظ حتى قال: (ربَّ غيظ تجرعته مخافة ما هو أشد منه)، وكان يعاني من ثقل حمل السؤدد، فلما سمع أحدهم يقول: (ما أبالي أمُدحت أم هُجيت) أجابه: (استرحت من حيث تعب الكرام)، كما ذكر ابن خلكان في وفياته ٢/٥٠١.

ويبدو أنه كان على بينة من سؤدده، وله رأي فيه، فمن لم يسد فتىً، لن يسودَ، وقد يكون السؤدد عنده أن تعرف منزلة الرجل على ألسنة العامة قبل الخاصة كما ذهب إلى مثل هذا ابن عبد ربه في عقده ٢/٢٧٣ فقد روى له قوله: (السؤدد مع السواد)، ولقوله مناسبة في منتخب الطبري ١٤٦، ومجملها أنهم (ذكروا الحضين بن المنذر عند الأحنف، فقالوا: ساد وما اتصلت لحيته، فقال الأحنف: السؤدد قبل السواد، قبل أن يشيب الرجل، وكان لواء ربيعة مع الحضين يوم صفين) مع أمير المؤمنين .

ولقد رأيته ينوء بعاهات كثيرة ناحلاً، كده الإعياء والتعب، من دون أن يتأوَّه أو يحتجَّ أو يسعى إلى منصب أو جاه أو مال.

ومن طريف مواقفه ما نقله ابن خلكان في وفياته ٢/٥٠١ عن هشام بن عقبة أخي الشاعر ذي الرمة الذي قال: (شهدت الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قوم يتكلمون في دم، فقال: احكموا، فقالوا: نحكم بديتين. قال: ذلك لكم، فلما سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتم غير أني قائل لكم شيئاً، إن الله عز وجل قضى بدية واحدة، وإن النبي ~ قضى بدية واحدة، وأنتم اليوم طالبون، وأخشى أن

تكونوا غداً مطلوبين فلا يرضى الناس منكم إلاَّ بمثل ما سننتم لأنفسكم، فقالوا: فردَّها دية واحدة، فحمد الله وأثنى عليه وركب).

ولم يكن يكابر إن أخطأ أو تعجَّل في قول، ومما يؤثر عنه أن أحدهم نازع آخر في أمر، فقال الأحنف: (لا أحسبك إلا ضعيفاً فيما تحاول) فأجابه الرجل: (ما على ظنك خرجت من بيتي)، فأرسلها الأحنف حكمةً إذ قال: (الأمر ما قيل: احذروا الجواب).

من منابع حكمته

وأنت واقف في كتب التراث على شيء غير قليل من الحكميات التي تنسب له استطعت التقاط ما تناثر منها في المصادر التي رجعت إليها، ولا شك أن ما دونه المؤرخون لا يتناسب مع سمعة الأحنف ومكانته، ومما وقفنا عليه الآتي:

- لا مروءة لكذوب، ولا سؤدد لبخيل، ولا ورع لسيّئ الخلق. (عقد٢/٢٧٧، بيان٢/١٩٩).

- من فسدت بطانته كان كمن غصَّ بالماء، ومن غصَّ بالماء فلا مساغ له، ومن خانه ثقاته فقد أُتي من مأمنه. (عقد ١/٤٩).

- كاد العلماء أن يكونوا أرباباً، وكل عزٍّ لم يؤكد بعلم فإلى ذُلٍّ ما يصير. (عيون ٢/١٢١، عقد ٢/١٨٦).

- الكامل من عدَّت هفواته. (عيون ١/٢٧٧، أنساب الأشراف ١٢/٣١٣).

- إن ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله. (بيان ٢/١٤٩، وفيات ٢/٥٠٠).

- الكذوب لا حيلة له، والحسود لا راحة له، والبخيل لا مروءة له، ولا يسود سيئ الأخلاق، ومن المروءة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم ذلك ويتجمل. (أمالي القالي ١/٢٣٢).

- أسرع الناس إلى الفتنة أقلهم حياءً من الفرار. (بيان ٢/٧٢، عقد ١/١٩٩).

- إن رأيت الشرَّ يتركك، فاتركه. (عقد ١/١١٩).

- خير الأخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك مودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن عثرت عضدك، وإن احتجت إلى مؤونته رفدك. (عيون ٣/٤).

- ما ادَّخرت الآباء للأبناء، ولا أبقت الموتى للأحياء شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب. (عقد ١/ ٢٥١، وفيات ٢/ ٥٠١).

- ما خان شريف، ولا كذب عاقل، ولا اغتاب مؤمن. (عيون ٢/ ٢٦، وفيات ٢/ ٥٠١).

- حتف الرجل مخبوء تحت لسانه.(عيون ٢/ ١٠).

- من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشدُّ منه. (عيون ١/ ٢٨٤، بيان ٢/ ٧٦، أنساب ١٢/ ٣١٣).

- ما عرضت النصفة (أي الإنصاف) قط على أحد فقبلها إلا دخلتني له هيبة، ولا ردَّها إلا اختبأتها في عقله. (عيون ١/ ٧٨)

- أحيي معروفك بإماتة ذكره. (البداية والنهاية ٨/ ٣١٢).

- الزم الصحة يلزمك العمل. (بيان ٢/ ٩٣).

- من حق الصديق أن يحتمل ثلاثاً، ظلم الغضب، وظلم الدَّالَّة، وظلم الهفوة. (عقد ٢/ ٢٩٦).

- ربَّ رجل لا تغيب فوائده وإن غاب، وآخر لا يسلم منه جليسه وإن احترس. (عقد ٢/ ٣٢٨).

- قال له رجل: دلني على حمد بلا مُرزئة، فقال: الخلق السجيح — الحسن—، والكف عن القبيح، ثم اعلموا أن أدوى الداء اللسان البذيء، والخلق الرديء. (بيان ٢/ ١١٥، وفيات ٢/ ٥٠١).

- قال لبني تميم: تحابوا تجتمع كلمتكم، وتباذلوا تعتدل أموالكم، وابدأوا بجهاد بطونكم، وفروجكم يصلح دينكم، ولا تغُلُّوا يسلم جهادكم. (بيان ٢/ ٩٣).

- سمع رجلاً يقول: التعلم في الصغر كالنقش على الحجر، فقال: الكبير أكبر عقلاً، ولكنه أشغل قلباً. (بيان ١/٢٥٧).

- ليمنعني من كثير الكلام مخافة الجواب. (طبقات ابن سعد ٧/٩٥).

- قيل له: إن فيك أناةً شديدة فقال: قد عرفت في نفسي عجلة في أمور ثلاثة، في صلاتي إذا حضرت حتى أصلِّيها، وجنازتي حتى أغيبها في حفرتها، وابنتي إذا خطبها كِفْؤها حتى أزوجه. (طبقات ٧/٩٥).

- قال رجل في مجلس الأحنف: ليس شيء أبغض إلي من التمر، فقال: رُبَّ ملوم لا ذنب له. (بيان ٢/٣٤٤، حيوان ١/٢٤، عيون ٣/٢٩٧، عقد ٢/١١٤).

- قيل للأحنف: أيُّ الشراب أطيب؟ فقال: الخمر. قيل له: وكيف علمت ذلك، وأنت لم تشربها؟ قال: إني رأيت من حلَّت له لا يتعدَّاها، ومن حرُمت عليه يدور حولها. (العقد ٦/٣٥٦).

- أحق الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. (عقد ٢/٢٢٣).

- أنا للعاقل المدبر أرجى مني للأحمق المقبل. (عقد ٢/٢٢٣).

- العقل خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد. (أمالي القالي ٢/١٦٧).

- ذمَّه أحدهم في مجلس معاوية، فبلغه الخبر فقال: عُثَيْثة تقرم جلداً أملساً. (ذيل الأمالي ١٤).

- إن الله جعل أسعد عباده عنده، وأرشدهم لديه، وأحظاهم يوم القيامة، أبذلهم للمعروف يداً، وأكثرهم على الأخوان فضلاً، وأحسنهم على ذلك شكراً. (أمالي ١/٢٤١).

- أربع من كنَّ فيه كان كاملاً، ومن تعلق بخصلة منهن كان من صالحي قومه، دين يرشده، أو عقل يسدده، أو حسب يصونه، أو حياء يغناه – يلزمه – . (بيان ٢/١٩٦).

- فيَّ ثلاث خصال ما أقولهن إلاَّ ليعتبر معتبر: ما دخلت بين اثنين قط حتى يُدخِلاني بينهما، ولا أتيت باب أحد من هؤلاء ما لم ادع إليه، يعني الملوك، ولا حللت حبوتي إلى ما يقوم الناس إليه. (وفيات ٢/٥٠١).

- قيل له: ما المروءة؟ قال: العفَّة والحرفة. (بيان ٢/١٩٦).

- قال غيلان بن خرشة للأحنف: ما بقاء ما فيه العرب؟ قال: إذا تقلَّدوا السيوف، وشدُّوا العمائم، وركبوا الخيل، ولم تأخذهم حمية الأوغاد. قال غيلان: وما حميَّة الأوغاد؟ قال: أن يعدُّوا التواهب فيما بينهم ضيماً – التواهب: أن يترك الرجل من حقه لصاحبه عند الحكم على وجه المروءة ومكارم الأخلاق، فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حميَّة الأوغاد. (بيان ٣/٩٨).

- آفة الحلم الذُلُّ. (عقد ١/١١٤).

- لا حلم لمن لا سفيه له. (عقد ١/١١٤).

- ما قلَّ سفهاء قوم إلا ذلوا. (عقد ١/١١٤).

- أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم النار والعار. (عقد ١/١١٤).

- أنشد كما في العقد ٢/٢٦٢:

لابدَّ للسؤدد من رماح ومن رجال مُصلتي السلاح
يدافعون دونه بالراح ومن سفيه دائم النباح

- وأنشد أيضاً كما في العقد ٢/٢٦٥:

وليس يتم الحلم للمرء راضياً إذا هو عن السخط لم يتحلم

كمـا لا يـتم الجـود للمـرء إذا هو عند العسر لم يتحشَّم

- وقال في المصدر السابق، ونسب لغيره بدون عزو أيضاً:

ولربمـا ضـحك الحليـم مـن وفـؤاده مـن حـرِّه يتـأوَّه

ولربمـا شَـكَلَ الحليـم لـسانه حـذر الجـواب وإنَّـه لمفَـوَّه

- لأن يطيعني سُفهاء قومي أحبّ إليَّ من أن يطيعني حلماؤهم. (العقد ١١٤/١)

- إن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه. (وفيات ٥٠١/٢)

- تذاكر قوم في مجلسه الطعام والنساء فقال: جنبوا مجالسكم ذكر النساء والطعام فإني أكره للرجل السري أن يكون وصَّافاً لبطنه، وقد عرف ما يجوز إليه، ولفرجه، وقد علم أين مجلسه. (عيون ٢٠٠/٣، أمالي ٢٦٩/١، سير أعلام النبلاء١٢٥/٥ وفيات ٥٠١/٢).

- قال له معاوية: ما تقول في الولد؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنهم ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودَّهم، ويحبُّوك جهدهم، ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملُّوا حياتك ويحبوا وفاتك.

(عقد٤٣٢/٢، أمالي ٤١/٢، عيون ٩٢/٣).بروايات متقاربة ومناسبات مختلفة.

- كثرة الضحك تُذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به. (وفيات ٥٠١/٢)

وذكر القالي في أماليه ٢٠/٢- ٢١ خطبة نسبها إلى الأحنف هي مجموعة من الحكم قال فيها:

- إن الكرم منع الحرم.
- ما أقرب النقمة من أهل البغي.
- لا خير في لذَّة تعقب ندماً.
- لن يفتقر من زهد.
- ربَّ هزل قد عاد جدّاً.
- من أمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه.
- دعوا المزاح فإنه يورث الضغائن.
- خير القول ما صدقه الفعل.
- احتملوا لمن أدلَّ عليكم.
- اقبلوا عذر من اعتذر إليكم.
- أطع أخاك وإن عصاك، وصله وإن جفاك.
- أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك.
- إياكم ومشاورة النساء.
- إن كفر النعمة لؤم، وصحبة الجاهل شؤم.
- من الكرم الوفاء بالذمم.
- ما أقبح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، والعداوة بعد الود.
- لا تكوننَّ على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل.
- إن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك، فانفق في حقٍّ ولا تكونَنَّ خازناً لغيرك.
- إذا كان الغدر في الناس موجوداً، فالثقة بكل أحد عجز.

- اعرف الحقَّ لمن عرفه لك.

- إن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.

- لا يتم أمر السلطان إلا بالوزراء والأعوان، ولا ينفع الوزراء ولأعوان إلا بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا بالرأي والعفة. (سير أعلام ١٢٦/٥).

- قال قوم: الصمت أفضل، وقال الأحنف: المنطق أفضل، لأن فضل الصمت لا يعدو صاحبه، وفضل المنطق ينال من سمعه، وإن ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها. (أنساب ٣١٢/١٢).

- رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلاَّ بفعل، ولا في مال إلاَّ بجود، ولا في صديق إلاَّ بوفاء، ولا في فقه إلاَّ بورع، ولا في صدق إلاَّ بنيَّة. (عقد ٤١٣/٢).:

- ربَّ ناطق هو أعيا من صامت. (أنساب٣١٢/١٢).

- عجباً لمن يتجبر وقد جرى في مجرى البول مرتين. (أنساب ٣١٢/١٢)، وقاربه في الرواية ابن خلكان في وفياته ٥٠٥/٢.

- إن الكلم الصالح يزين صاحبه في الدنيا، ويلقى خيره في الآخرة، وإن الكلم السيئ شين عاجل وشرٌّ آجل. (أنساب ٣١٤/١٢).

- من كثر ضحكه ذهبت هيبته، ومن أكثر من شيء عرف به.(أنساب ٣٢٠/١٢).

- السؤدد كرم الأخلاق، وحسن الفعال. (أنساب ٣٢١/١٢).

- بعض الذلِّ أبقى للأهل والمال. (أنساب ٣٢١/١٢).

- قال لولده: اتخذ الكذب كنزاً لا تنفقه. (أنساب ٣٢١/١٢).

- لا تؤاخينَّ خبّاً – غشاشاً –، ولا تستشيرنَّ عاجزاً، ولا تستعينَّ كسلاً. (أنساب ١٢/ ٣٢١).

- قيل للأحنف: ما الحلم؟ فقال: قَوْلٌ إن لم يكن فِعل، وصمت إن ضرَّ قَوْل.

- قال رجل للأحنف: بم سوَّدك قومك وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أصبحهم وجهاً، ولا أحسنهم خلقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يا بن أخي، فقال: وما ذاك؟ قال: بتركي من أمرك ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك. (عقد ٢/ ٢٦٩)

- من قلَّ فهمه كان أكثر قوله وعمله فيما عليه لا له. (أنساب ١٢/ ٣٣٠).

- من أراد شراء دار فليستصلح الجار قبل الدار. (أنساب ١٢/ ٣٤١).

- قال في رسالة يحث فيها قومه للالتحاق بجيش أمير المؤمنين المتجه إلى صفين: إن من العطايا حرماناً، ومن النصر خذلاناً، فحرمان العطاء القلة، وحرمان النصر الإبطاء، ولن تقضى الحقوق إلا بالرضا، وقد يرضى المضطر بدون أمل. (الفتوح ٥/ ٥١٤).

المعاق الذي حاز قصب السبق بين الصحابة والتابعين

أ. الوليد الذي نسي اسمه:

قبل عقد من الهجرة النبوية المباركة أو أقل، أو أكثر بقليل تردد صدى صوت وليدٍ ضعيف لم تحفل الصحراء بمولده، وبسبب تشوُّه خلقته ما أظنه كان محل عناية أو ترحيب من أحد، ولم تعبأ كثيراً بحفظ اسمه فغاب عن الذَّاكرة واختلط، أما الاسم الذي عرف به «الأحنف» فليس هو الذي اختاره أبواه له، وإنما هو وصف لعاهته التي ولد بها، فالأحنف في اللغة على معان كلها تدور حول العرج في المشي والعوج في الرجل، وقد يراد به انقلاب القدمين، أو ميل في صدرهما، أو المشي على ظهر القدمين، كما ذهبت إلى ذلك معجمات اللغة.

وذكر ابن قتيبة في معارفه ٤٢٣ عن أبي اليقظان أن اسمه صخر، وروى عن غيره أن اسمه الضحَّاك، وإلى ذلك ذهب أيضاً ابن سعد في طبقاته ٩٣/٧ وقال: اسمه الضحاك بن قيس بن معاوية بن الحصين بن حفص بن عبادة بن النزَّال بن مرَّة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، وروى في معارفه عن أبي اليقظان أيضاً أن اسم جدِّه حِصن، وهو ابن مرَّة بن عبيد، من تميم، وقال: ورهطه بنو مرَّة بن عبيد هم الذين (بعثوا بصدقات أموالهم إلى النبيِّ ~ مع عِكراش بن ذؤيب)، وقال: وقال غير أبي اليقظان: إنَّ اسمه الضحَّاك بن قيس، وإلى ذلك ذهب ابن خلكان في وفياته ٤٩٩/٢، ولكنه قال: وقيل: اسمه صخر، وقد يكون الضحاك من صفاته كما رجح عند المامقاني في تنقيح المقال ٢٨٨/٨، وروى ابن حجر في تهذيبه ١٦٧/١ اسماً ثالثاً فقال: وقيل الحارث.

وقد غلب لقبه (الأحنف) على اسمه منذ طفولته حتى اختلط على من ترجم له، وكانت أمه ترقصه وتقول:

والله لـولا حَنَـفٌ في رجلـه ما كـان في الحـي غـلام مثلـه

كما ذكر غير واحد ممن ترجم له منهم ابن سعد في طبقاته ٩٣/٧، وكأنها كانت تتنبأ له بمستقبل يختلف عن مستقبل أقرانه من أبناء تميم، وقد أجريت للصبي جراحة إلا أنها لم تنجح، بل زادت في اعوجاج رجله، وليس العرج لوحده الذي ولد به، فقد ذكر ابن قتيبة في كتابه السابق الذكر أنه ولد (ملتصق الأليتين، حتَّى شُقَّ ما بينهما. وكان الأحنف أعور).

أما أمِّه فاسمها حُبَّى بنت عمرو بن ثعلبة، من بني أود، من باهلة، وقيل: حُبَّى بنت قُرط، وأخوها الأخطل بن قرط، وهو من الشجعان، وقد فخر به الأحنف يوم الجفرة كما سبق ذكر ذلك.

وذكر ابن خلكان في وفياته ٥٠٦/٢ أن جده معاوية بن الحصين قتله عنترة بن شداد في (يوم الفروق)، وهو من أيام العرب المشهورة، ذكره ياقوت في معجمه ٣٥٨/٤، وقال: إنه كان لبني عبس على بني سعد بن زيد مناة بن تميم، وذكر أيضاً أن الفروق (عقبة دون هجر إلى نجد بين هجر ومهب الشمال).

وليست العاهة وحدها هي التي امتحن بها الصبي، وإنما لم يتمتع بحنان والده ورعايته طويلاً، إذ قتله أحد بني مازن في إحدى الغارات، كما ذكر ابن قتيبة في معارفه ٤٢٣ وغيره، ولم تكن أمه من تميم، فهي باهلية من بني قراض كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٩٣/٧ وابن قتيبة في معارفه ٤٢٣، ومن سيئ عادات القوم أن الصبيَّ الذي يموت أباه وهو من أمٍّ غريبة عن القبيلة لا يُعبأ به كثيراً، بل لا يعبأ كثيراً بأبناء الغريبات، فكيف به وهو بتلك الخلقة.

ب. مجمع العاهات

ولم يكن العرج هو العلّة الوحيدة التي ابتلي بها الأحنف، فقد كان قصير القامة، صغير الرأس، مائل الخد، مائل الذقن، متراكب الأسنان، مجدور الوجه، معوجّ الأنف، مسترخي الأذنين، كريم العين، غائرهما، لا ينبت الشعر على عارضيه، بحيث كان رهطه يتمنون شراء لحية له بعشرين ألفاً إن أمكن كما ذكر البلوي في ألف بائه ٢/٣٤٣، وقد ذكر غالبية عالله ابن قتيبة في معارفه ٥٧٨، كما ذكرها غير واحد ممن ترجم له، ويوم ولد ولد ملتزق الإليتين فَشُقّ كما سبق ذكر ذلك، أما عينه فقد فقدها بسمرقند كما ذكر محمد بن حبيب في المحبر ٣٠٣.

وروي أن عبد الملك بن الزبير حينما رأى الأحنف أول مرة قال: (ما رأيت خُصلة تُذَمُّ إلاّ وقد رأيتها في الأحنف) كما ذكر الجاحظ في بيانه ١/٥٦ وابن قتيبة في عيونه ٤/٣٥، ونظر بقية الحكاية في سير أعلام النبلاء ٥/١٢١، بل هو أحد أربعة من السادة المشهورين الذين لا ينبت الشعر في وجوههم وهم: (عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد ابن عبادة، والأحنف بن قيس الذي يضرب به المثل في الحلم، والقاضي شريح)، وقد لقبوا بالسادة الطلس، والأطلس: الذي لا ينبت الشعر في وجهه، كما ذكر ابن خلكان في وفياته ٢/٤٦، ولكنه حاز قصب السبق بجدِّه، واستقامته، وسخائه، وتقواه، كما ساد تميم بحلمه، وشجاعته، وقوة إيمانه، وحسن تصرفه، بل كتب مع الخالدين في سفرهم بعد أن ضُرِبَ به المثل فقيل: (أحلم من الأحنف)، وقد نوه بحلمه غير واحد منهم أبو تمام في إحدى قصائده الشهيرة فقال كما ذكر ابن خلكان في وفياته ٢/١٥:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

ونوه بحلمه أيضاً ياقوت في رسالة بعث بها إلى وزير صاحب حلب كما جاء في الوفيات ٦/١٣٦ فقال:

فمن حاتم في جوده وابن مامة ومن أحنف إن عد حلم ومن

ومدح أحدهم يحيى البرمكي فقال له: (والله لأنت أحلم من الأحنف بن قيس)، فقال لحاجبه: (لا تقرب إليّ من أعطاني فوق حقّي)، كما ورد في الوفيات ٦/٢٢٧، وذكر ابن عبد ربه في العقد أنهم قالوا: (ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بن قيس بالحِلم، وخريم بالنعمة، وعمير بن الحُباب بالشدَّة).

وكأن الله أراد أن يفرده بين قومه، فأعقب إناثاً كان حريصاً على تزويجهن لمن يرتضي دينه، وذكر ابن الأثير في أسد الغابة ١/٥٥ رواية عن المدائني مفادها أنه أعقب ولداً واحداً كان يكنى به، ولكنه لم يعقب فانقطع نسله، ويبدو أنه لم يكن برزانة أبيه ولا حلمه، روى ابن قتيبة في معارفه ٤٢٤ أنه قال يوماً للزبَّاء جارية أبيه: (يا فاعلة. فقالت له: لو كنت كما تقول، أتيت أباك بمثلك)، ولو ألجمته حجراً لكان خيراً له، ولا عقب لولده الأحنف (إلا جارية فماتت)، ولكن عز الدين بن الأثير ذكر في اللباب ١/٣٢ في أثناء ترجمة أبي إسحاق بن يعقوب بن إسحاق الأحنفي الجوزجاني أنه من ولد الأحنف بن قيس فنسب إليه، توفي بدمشق سنة ٢٥٦، ولم أقف على مثل هذا في مصادري.

ويبدو أنَّ تميماً لم يكن لها حظ بساداتها في البصرة أو الكوفة، فسيدهم في البصرة لم يعقب، وسيدهم في الكوفة محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة لم يعقب أيضاً كما ذكر في المصدر السابق ٤٢٥.

هذا والله هو السيد

كل الظروف التي أحاطت بطفولة الأحنف وصباه لا تُنبئ أنه سيكون ذا منزلة أو مكانة، فقد ولدته أمٌّ غريبة عن قبيلته، وابتلي بعلل وعاهات قد تُنَفِّر به من حوله، وقتل أبوه، كما سبق ذكر ذلك، فامتحن باليتم أيضاً.

وإذا كانت المصادر لم تفصح عن مكانة أبيه فإنها نوهت بعميه المتمشمش وصعصعة، فرأينا الأول من كبار القادة، ورأينا الثاني سيد بني تميم زمن معاوية بن أبي سفيان، وليس بعيداً أن يكون أباه من وجوه تميم أيضاً، ولكن قدر الله شاء أن يكون اليتيم المعاق واحداً من عظماء الإسلام.

ولا يُدرى متى بزغ طالع سعده، والظاهر أنه رافقه منذ بداية شبابه على ما سيتبين لنا.

أدرك الأحنف النبي الكريم ~، ويغلب على الظن أنه لم يتشرف برؤيته على الرغم من إسلامه في حياته كما ذهب إلى ذلك غالبية من ترجم له، إلا أن سبحانه وتعالى كَرَّمه باستغفار المصطفى له من دون أن يراه، إذ انبهر الأحنف بدعوة سيد الكائنات صلوات الله وسلامه عليه حال لقائه بمبعوثه إلى رهطه بني سعد، فآمن بها، وحثَّ قومه على الإيمان، فاقتدوا به، وحين علم الرسول الكريم ~ بموقفه استغفر له غير أن خبر الاستغفار لم يطرق سمع الأحنف إلا بعد أكثر من ربع قرن، وبالتحديد في خلافة عثمان، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته ٧/ ٩٣ عن علي بن زيد عن الحسن عن الأحنف أنه قال: (بينا أنا أطوف بالبيت زمن عثمان إذ لقيني رجل من بني الليث فأخذ بيدي فقال: ألا أبشرك؟ قلت: بلا، قال: تذكر إذ بعثني رسول الله ~ إلى قومك بني سعد، فجعلت أعرض عليهم الإسلام،

وأدعوهم إليه، فقلت أنت: إنك لتدعو إلى الخير، وما أسمع إلا حسناً، قال: فإني ذكرت ذلك لرسول الله ~، فقال: اللهم اغفر للأحنف. قال الأحنف: فما شيء أرجى عندي من ذلك)، وقد ذكر الرواية أيضاً البخاري في التاريخ الكبير ٢/ ٥٠، وكأن الله سبحانه أراد أن يكون استغفار نبيه في محله، إذ اقتدى الأحنف بخلقه وسار على هدي رسالته حتى وافاه أجله.

وانفرد ابن قتيبة في ٤٢٣ من معارفه فيما أعلم بالقول: (أتى رسولُ الله ~ قومَه يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوا، فقال الأحنف: إنه يدعوكم إلى الإسلام ومكارم الأخلاق، وينهاكم عن ملائمها، فأسلموا وأسلم الأحنف، ولم يفد على رسول الله)، فليس في أخباره ما ينبئ عن رؤيته النبيّ ~ أو لقائه به، وقد يكون حدث سقط في المخطوط، أو خطأ أثناء الطبع لم يلتفت إليه المحقق، أو تكون رواية انفرد بها ابن قتيبة، والله أعلم.

وانفرد ابن حجر في تهذيب التهذيب ١/ ١٦٧ بأخبار لم أقف عليها عند غيره منها قوله إنه: (أدرك الإسلام ولم يسلم) وقال أيضاً: (يروى بسند لين أن الرسول دعا له) وقال في الصفحة نفسها: (.. عن خير بن حبيب أن الأحنف بلّغه رجلان دعاء النبي ~ فسجد).

ولا شك أن الأحنف لم يكن خامل الذكر في شبابه، لأن كلمته أثّرت بالصحابي الليثي، إذ وجدت صداها في رهطه، ولا شك أنها لن تكون مؤثرة لو كان صاحبها خامل الذكر لا منزلة له في قومه، ولا أستبعد أيضاً أن سمعته قد تعدّت حدود رهطه، ولعله كان من وجهاء تميم آنذاك، ولاسيما أن كاتب مادة الأحنف في دائرة المعارف الإسلامية يذهب إلى أن تميماً (لم تستجب لنداءات النبي #، وكان الأحنف هو السبب في دخولهم في الإسلام).

ولعل ما يؤيد ما ذهبت إليه، وأكثر منه، أن أحد الصحابة ذكر للخليفة عمر بن الخطاب حينما قدم عليه الأحنف بفتح تستر (يا أمير المؤمنين إن هذا — يعني الأحنف — الذي كفَّ عنَّا بني مرَّة حين بعثنا رسول الله في صدقاتهم، وقد كانوا هموا بنا) على ما ذكر الذهبي في سيره ٥/١٢٠، ولا شك أن ذلك يخبر عن مكانته في قومه، وهو في مقتبل العمر.

ويبدو أنها ليست المرة الأولى التي يفد على الخليفة من تستر فقد وفد عليه أيضاً رفقة وفد أهل البصرة كما ذكر الطبري في تاريخه ٢/٦١٧، وهذا يعني أنه كان من وجوه البصرة الذين يقع عليهم الاختيار في الوفادة على الخليفة.

ولم أقف على ما يشير إلى لقائه بأبي بكر في خلافته، أو على مشاركةٍ في حروب الردَّة التي اندلعت في عهده، ولكن يبدو أنه اتصل رفقة عمه المتمشمش بمسيلمة الكذاب ليعرفوا مدى صدقه، أو لسبب آخر لم نقف عليه، ولكنهما خرجا منه على رأي واحد هو إيمانهما بكذبه.

إلا أنَّ صلته بالخليفة عمر بن الخطاب كانت متميِّزة، فقد روى عنه، كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٧/٩٣، وهو عنده (ثقة مأمون الحديث، وقد روى عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذرٍّ)، وذكر ابن حجر في تهذيبه ١/١٦٧ أنه روى أيضاً عن عثمان وسعد وابن مسعود وغيرهم، وروى عنه الحسن البصري والعلاء بن شخير وطلق ابن حبيب وغيرهم، وذكر الذهبي في كتابه الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ٢٢٩ أن له رواية فيها عن عمر وعثمان وعلي، وعنه الحسن وحميد بن هلال، وروى له الطبراني في المعجم الكبير ١/٢٨٧ حديثاً عن الأسود بن سريع عن النبي ~.

ولعل أول وفاداته على الخليفة عمر كانت أخطرها، بل كانت امتحاناً صعباً لا أظن أنه توقعه، ولكنه استقبله برحابة صدر من دون احتجاج أو مناقشة، وكانت عاقبة صبره منزلة ما نالها أحد من قادة جيوش الفتح في خلافته.

أما الامتحان، فيبدو أن عمر بن الخطاب شكَّ بحسن إسلامه في وفادته الأولى، وظنَّه من المنافقين الذين يحسنون القول من دون الفعل، ويملكون القدرة على التأثير، فقد راعه حسن منطقه – على حدِّ تعبير الجاحظ في بيانه ١/٢٥٥ – فاحتبسه، وأمره بعدم مغادرة المدينة.

ويغلب على ظني أن هذه الوفادة كانت رفقة هلال بن وكيع، وزيد بن جبلة، فقد جاء في البيان ٢/١٤٤ أنهما بعد أن تكلَّما في حضرة الخليفة قام الأحنف فقال: (يا أمير المؤمنين إن مفاتيح الخير بيد الله، والحرص قائد الحرمان، فاتق الله فيما لا يغني عنك يوم القيامة قيلاً ولا قالاً، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف سبباً يكفيك وفادة الوفود، واستماحة الممتاح، فإن كلَّ امرئ إنما يجمع في وعائه إلا الأقل ممن عسى أن تقتحمه الأعين، وتخونهم الألسن، فلا يوفد إليك يا أمير المؤمنين)، وكأن الأحنف أراد رسم سياسة عامة للخلافة مبنية على قيم العدل الاجتماعي التي أرسى قواعدها الإسلام، فالخليفة ليس في حاجة إلى وفادة أحد من رعيَّته، كما أن الرعيَّة ليست لها حاجة إلى طرق باب الخليفة إن طبَّق نواميس العدل والإنصاف على السواء بينهم، وهو يذكره بيوم لا يغني فيه إلا العمل الصالح والسيرة الحسنة، وأراد لفت نظره إلى عدم قدرة جميع الناس في الوصول إليه أو طرق بابه، كما أنه ليس في مقدور غالبيتهم التعبير عن حاجاتهم في مجلسه.

وتلاحظ أنها لغة غريبة لوافد على خليفة أول مرَّة، وقد يشم منها عدم الرضا عن سياسته في الحكم، أو اتهامه بالتقصير أو ما إلى ذلك، وهي كفيلة بإثارة غضبه، بل قد تكون كفيلة لإحداث قيل وقال.

وقد يكون هلال وصاحبه قد أشادا بسيرة الخليفة وعدله وحسن سياسته، فرأى الأحنف أن المجلس ليس مجلس إشادة أو مديح، قدر ما هو مجلس تفكر ونصح فيما يجنب الخليفة القيل والقال، وفيما يخدم مصالح الرعية ويخفف عنها الأعباء.

ولا أظن أن أحداً من الصحابة أو التابعين تحدث مع عمر بن الخطاب كما تحدث معه الأحنف، ولا شك أن حديثه كان بمجمع من عدد كبير منهم، وقد لا يفهم منه مجرد التذكير والنصح، وإنما أريد منه إشاعة فتنةٍ، وذلك باتهام الخليفة بغياب العدل من حكمه.

ولعل الخليفة استغرب من جرأة الأحنف وحسن منطقه فظنَّ به الظنون، وفسر كلمته تفسيراً بعيداً عن واقعه. وقد ورد الخبر في غير مصدر منها الطبقات ٩٢/٧ والبداية والنهاية ٣٧/٨ وأسد الغابة ٥٥/١.

ويبدو أن الأحنف قال ما قال مندفعاً إما من عمق إيمانه، أو من رؤيته للكيفية التي ينبغي أن يكون عليها الحاكم العدل، فرأى أن من واجبه – وقد حضر مجلس الخليفة الذي لم يحضره من قبل، بل لعله أول مجلس بهذه الأهمية حضره الرجل في حياته – أن يصدقه القول، ولكن الرسول الكريم ~ حذر المسلمين وخوفهم من المنافقين، وخاصة من يتقن فن القول منهم، فظنه الخليفة منهم، فأصدر قراره باحتجازه في المدينة.

ولم يعترض الأحنف على القرار ولا ناقشه، واستمرَّ سريرته كعلانيته، ومرَّ عام بكامله أو يزيد، ولابد أنه التقى الخليفة في أثنائه غير مرَّة، وشارك في الحوار الذي كان يدور بمجلسه، وفي النهاية اكتشف الخليفة أنه من الصفوة التي يمكن الاعتماد عليها، فاستدعاه وقال له: (يا أحنف قد بلوتك، واختبرتك فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة، وأرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك)، وزاد على ذلك – كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٩٤/٧ – بأن كتب إلى واليه على العراق أبي موسى الأشعري: (أما بعد فأدن الأحنف بن قيس، وشاوره، واسمع منه).

ولابد أن الخليفة خلال الحول قد تنبه إلى رجاحة عقل الأحنف وبعد نظره وحسن تصرُّفه، وإلا كيف نفسِّر أمرَهُ واليه بالاستماع إليه، ومشاورته، وتقريبه إذا كان شخصاً عابراً لا يختلف عن بقية القوم حتى وإن كانت (علانيته حسنة)؟

وكانت الوفادة الأولى فاتحة لوفاداتٍ أخر لم يفكر فيها الأحنف بطلب شيء لنفسه، أو لرهطه بني سعد، أو لقبيلته تميم، وقد وفد عليه مرة في أهل البصرة والكوفة على ما ذكر الطبري في تاريخه ٤٩٥/٢، فلما طلب الخليفة من الوفد رفع حاجاتهم، قالوا: (أما العامة فأنت صاحبها، ولم يبق إلا خواص أنفسنا، فطلبوا لأنفسهم).

أما الأحنف فما كانت تهمه مصلحته أو مصلحة قومه، وإنما كانت تهمه مصلحة البصرة وما تعانيه، وما يعانيه سكانها بسبب طبيعتها، وكأنه ناب عنهم جميعاً، بل كأنما ناب عن أحوال فقرائهم، وعن نسائهم، وعن أحوال أسر جيوش الفتح التي كانت تنطلق منها نحو الشرق، فهي ثغر الإسلام وقلعته، وعلى الخليفة أن ينظر في أحوالها ويحسنها لأنه مسؤول عن جميع المسلمين، فأحسن اختيار كلماته، كما أحسن نسجها كي لا يعترض عليه معترض فقال: (يا أمير

المؤمنين، إنك لكما ذكروا، ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر، ويسمع بآذانهم، وإنَّا لم نزل ننزل منزلاً بعد منزل حتى أرزنا إلى البرّ، وإن إخواننا من أهل الكوفة نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة، من العيون العذاب، والجنان الخصاب، فتأتيهم ثمارهم ولم تُخْضَد، وأنا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشَّاشة، زعِقة نشَّاشة، طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الأُجاج، يجري إليها ما جرى في مثل مريء النعامة. دارنا فعمة، ووظيفتنا ضيِّقة، وعددنا كثير، وأشرافنا قليل، وأهل البلاء فينا كثير، ودرهمنا كبير، وقفيزنا صغير، وقد وسَّع الله في أرضنا، فوسِّع علينا يا أمير المؤمنين، وزدنا وظيفة تُوظَّف علينا نعيش بها)، وقد زاد على ذلك ابن عبد ربه في عقده ٢/ ٩٤ فذكر ما قاله عن مناخ بلاد الشام وسهولة حصول سكانها على الحرث والزرع، وزاد على ما ذكره الطبري بشأن البصرة وصعوبة العيش فيها بقوله: (جانب منها منابت قصب، وجانب سبخة نشَّاشة – تنز الماء – لا يجف ترابها، ولا ينبت مرعاها، تأتينا منافعها في مثل مريء النعامة، يخرج الضعيف منَّا يستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة بمثل ذلك، ترنق ولدها – تنظر إليه – ترنيق العنز، تخاف عليه العدوَّ والسبع فألا تنعش ركيستنا، وتجير فاقتنا، وتزيد في عيالنا عيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وتصفِّر درهمنا، وتكبِّر قفيزنا – مكيالنا – وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء هلكنا).

فوصف البصرة من وجهة نظر من استوطنها واتخذها داراً، فهي على حسناتها فيها من العيوب ما قد يؤدي إلى هجرها، وخاصة إذا كان مستوطنها قد جاءها من جزيرة العرب، وقد اعتاد التنقل وراء الماء لأنه عصب الحياة، فلابد للبصرة من الماء كي تدب الحياة وتنتعش، ولابد من الرفد للثغر كي يستمر مدد الجيوش.

فاهتز الخليفة لمقالة الأحنف وقال: (هذا والله السيد).

ولكي تقارن بين الأحنف ومن رافقه ستلاحظ أن الحسد دفع أحدهما – ولا يستبعد أن يكون من تميم – أن يضع من صاحبه الذي رافقه من العراق إلى المدينة فقال: (يا أمير المؤمنين، إنه ليس هناك، وأمه بأهلية)، ولكن الخليفة ألجمه إذ قال: (هو خير منك إن كان صادقاً)، وهكذا رافقت السيادة الأحنف إلى أن مات، ويبدو أن الأحنف تأثر من لمز صاحبه فقال:

أنا ابن الباهلية أرضعتني بثدي لا أجدٍّ ولا وخيم

وقد ذكر ذلك أيضاً ابن عبد ربه في عقده ٢/ ٥١.

ويغلب على ظني أن كلمته أنبأت عن ميلاد خطيب مفوَّه، وقائد محنك، وسياسي بارع، وحددت مسيرة رجل كان له شأنه في الإسلام وأحداثه في تلك الفترة البالغة التعقيد.

وعلى الرغم من أن صاحب العقد يقول: (فرجع الوفد واحتبس عمر الأحنف عنده حولاً) فإن ما ورد في بيان الجاحظ ١/ ٥٣٧ لا يؤكد رواية العقد حول احتباسه، بل يخالفها، فقد ذكر أن الخليفة نظر إلى الأحنف وعنده الوفد، (والأحنف مُلْتَفٌّ في بتٍّ له، فترك جميع القوم واستنطقه فلما تَبَعَّق منه ما تبعَّق، وتكلم بذلك الكلام البليغ المصيب، وذهب ذلك المذهب لم يزل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد له الرياسة ثابتاً له ذلك إلى أن فارق الدنيا). وأنت إذا أنعمت النظر في كلمته ستلاحظ:

١. إنه لم يطلب شيئاً لنفسه أو لقومه، وكانت تلك عادته إلى أن ذهب إلى جوار ربه، فلم أقف على ما يشير إلى أنه طلب من أحد شيئاً لنفسه أو رهطه في جميع مراحل حياته.

٢. إنه أبرز الجوانب السيئة في بيئة البصرة مقارنة بغيرها من الأمصار، ولاسيما أن الأمم السابقة لم تستوطنها من قبل، بسبب وخامة هوائها، وكثرة مستنقعاتها، وملوحة مائها، على عكس الكوفة التي تقع على نهر الفرات، ولا تبعد عن الحيرة إلا فراسخ معدودات، كما أنها لا تبعد عن حاضرة كسرى كثيراً، وعلى عكس بلاد الشام وغيرها من البلاد التي يأتيها الخير بيسر وسهولة، في الوقت الذي لا يأتي فيه الماء إلى البصرة إلا بمشقة وصعوبة وخوف، وهو عصب الحياة.

٣. ولم يكتف بذلك، وإنما أشار إلى ما تعانيه نساء المسلمين من تعب ومشقة وخوف في سبيل الحصول على الماء.

٤. وطلب منه أيضاً التوسع في أرزاق المصر بسبب فاقته وقلة خيره وأهمية دور قاطنيه.

٥. وطلب من الخليفة في النهاية أن يأمر بحفر نهر يجلب لهم الماء العذب فييسِّر عليهم عسيراً، ويؤمن خائفهم.

وهكذا استطاع بحكمته، وحسن منطقه، وقوة حجته استمالة الخليفة إلى جانبه حتى قالها الخليفة مرتين: (هذا والله السيد).

أما رفيق رحلته زيد بن جبلة الذي قتله الحسد فلم يجد ما يعيره به غير قوله: (إنه ليس هناك، وأمه باهلية) وكأن الباهلية تختلف عن بقية نساء تميم، وكأن الرجل لم يعرف من الإسلام إلا الاسم.

ويبدو أن إحدى وفادات الأحنف على الخليفة عمر كانت برفقة عمرو بن الأهتم الذي كان له موقف بين يدي رسول الله ~ حينما سأله عن الزبرقان، فأشاد به وأثنى عليه بما يستحقه، ويبدو أن كلامه لم يعجب الزبرقان، وظن أنه

يستحق أكثر مما قال فيه، فقال: (والله يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكن حسدني) فقال عمرو: (أما والله يا رسول الله إنه لزِمِر المروءة — قليلها، ضيق العَطَن، أحمق الولد، لئيم الخال، والله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، رضيت عن ابن عمي فقلت أحسن ما علمت، ولم أكذب، وسخطت عليه فقلت أقبح ما علمت، ولم أكذب، فقال رسول الله ~: «إن من البيان لسحراً»)، وفي تلك الوفادة أراد الخليفة أن يعقد الرئاسة لأحدهما، فاجتمعت بنو تميم، فقال الأحنف كما ورد في العقد ٢/ ٥١:

(ثوى قَدَحٌ عن قومهِ طالما فلما أتاهم قال قوموا تناجزوا

فقال عمرو بن الأهتم: إنا كنَّا وأنتم في دار جاهلية فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم، وإنا اليوم في دار الإسلام، والفضل فيها لمن حَلِمَ، فغفر الله لنا ولك) فغلب عمرو، وقد يكون هذا الموقف درساً في الحلم أفاد منه الأحنف في مستقبلات أيامه. على أن الأهتم بالغ في الحديث عن فضلهم في الجاهلية، لأنه لقِّب بالأهتم لأن قيس بن عاصم المنقري لطمه فكسر بعض أسنانه كما تذهب إلى ذلك رواية.

ولم تكن تلك المرة الأولى التي ينعته الخليفة عمر بالسيد، فقد تبعها حينما بلغه غلبته على المرْوَين وبلخ قال: (وهو الأحنف، وهو سيد أهل المشرق، المسمى بغير اسمه) كما روى الطبري في تاريخه ٢/ ٥٤٧.

وحمل للخليفة في إحدى وفاداته غنائم فارس، وكانت في سنة ٢٢هـ على ما ذكر الطبري، وكان معجباً به غاية الإعجاب، بحيث قال فيه على ما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٨/ ٣١١ (أنه مؤمن عليم اللسان)، وسأله مرة كما جاء في

العيون ٢٩٧/٣ : (أي الطعام أحب إليك؟ قال : الزبد والكمأة، فقال عمر : ما هما بأحب الأطعمة إليه ولكنه يحب الخصب للمسلمين).

ولم أقف على ما يشير إلى لقائه بعثمان بن عفان في خلافته أو في غيرها، ولكنه كان فيها من كبار قادة فتح بلاد فارس، ويبدو أن أهل خراسان نقضوا عهدهم أثناء خلافته كما ذكر الطبري في تاريخه ٥٤٨/٢ فحاربهم الأحنف في غير واقعة، أما أهل فارس فقد أقبلوا على الأحنف (فصالحوه وعاقدوه، ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم)، وذهب بعضهم إلى أن من فتوحاته في زمنه أبيورد كما ورد في ترجمتها بمعجم البلدان، وجعله عثمان على المروَين كما ذكر الطبري في تاريخه ٦٠٥/٢ ، وأنت واقف في المصدر السابق على معارك كثيرة خاضها الأحنف في تلك البقاع خلال خلافة عثمان. ولا شك أنه التقاه غير مرَّة أثناء زياراته المدينة، في مواسم الحج أو في غيرها، وقد رأيناه في مسجد الرسول ~ يستمع إلى عثمان وهو يخاطب نفراً من الصحابة في أيام الفتنة على ما سيأتي، وقد ذكر الذهبي في تاريخه قسم عهد الخلفاء الراشدين ٢٢٦ أن الأحنف قد روى عنه.

ولم تنحصر رواية الأحنف بمن ذكرنا، وإنما تعدتها إلى العباس بن عبد المطلب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله على ما ذكر الذهبي في المصدر السابق ٣٧٤، ٥٢٢، ٤٩٧، وذكر أيضاً في ٤١٠ أن الأحنف رأى أبا ذرٍّ قائماً بالمدينة على ملأ من قريش ويقول : (بشر الكنَّازين برَضْفٍ يحمى عليه فيوضع على حَلَمةِ ثدي أحدهم حتى يخرج من نُغْضِ كتفه) قال الأحنف : (فما رأيت أحداً ردَّ عليه شيئاً)، ومما روي عنه في منتخب الطبري ٣٥ أنه قال : (رأيت أبا ذر رجلاً طويلاً آدم أبيض الرأس)..

وكان الأحنف ممن حضر جنازته رضوان الله عليه، وشارك في دفنه سنة ٣٢هـ أثناء عودته من البيت الحرام مع رفقة فيهم مالك الأشتر، كما جاء في فتوح ابن أعثم ٣٧٦، ولا يستبعد أنه تقصد المرور على الربذة لزيارته رفقة ذلك النفر.

صقر الفاتحين في المقدمة

رأينا لأحنف في غير مناسبة حليماً من غير ضعف، وشجاعاً من غير تهور، وإن بدا أحياناً، فهو يصدر عن حكمةٍ وسياسةٍ ورويَّةٍ وعقلٍ ثاقبٍ، إذ يهدف من وراء تظاهره بالتهوُّر إلى تثبيت عزيمة من معه، وتقويتها فلا تتعرض للانهيار، وخاصة في ساعات الخوف والمحنة.

وعلى الرغم من عدم إنصاف المحدثين له من المؤرخين، فلا شك أنه واحدٌ من قادة الفتح العظام الذين خلدهم تاريخ الإسلام في صدره الأول، وكتب عنهم صفحات طوال في سفره الكبير.

رافق الأحنف جيوش الفتح قرابة عشرين عاماً، لم يكن في خلالها إلا قائد جيش أو في مقدمته، ولم يتعرَّض أي جيش شارك بقيادته إلى هزيمة أو انكسار، وما فكَّر بالهرب في أحلك الظروف وأقساها، وكان بحق من المفاخر الكبرى بين الفاتحين.

وأنت إذا قلَّبت تاريخ الطبري أو ابن الأثير في أحداثهما من سنة ١٦هـ إلى سنة ٣٢هـ خاصة، أو غيرهما، ستقف على بطولات مشهودة له، إذ سجَّل الله على يده فتح مدن كثيرة، وشارك مشاركة فاعلة في فتح أخر، وكُتِبَت عنه خلال تلك المعارك الطَّاحنة وقائع تدعو إلى الإعجاب والدَّهشة، ومما يستدعي التأمل في أمر شجاعته اهتمامه بآلة الحرب، وكان من بين ما ذكره الفيروزآبادي عنه في قاموسه بمادة (حنف) (والسيوف الحنيفية تنسب له لأنه أول من أمر باتخاذها).

ومنذ أن أذن له الخليفة عمر بن الخطاب بالعودة إلى البصرة أصبح الذراع الأيمن، والمستشار الأول للجيش الإسلامي المتجه نحو الشرق، وسبق أن ذكرنا رسالته التي بعثها إلى أبي موسى الأشعري وأمره فيها أن يُدني الأحنف، ويشاوره، ويسمع منه، إذ كان ثاقب النظر وبعيده في كل الأمور، ولعلك لاحظت ذلك في الصفحات السابقة التي تناولنا فيها جوانب من سيرته، وكان أحياناً يتشوَّف الأحداث فيتهيَّأ لها قبل وقوعها، بل كان أحياناً يعرف أسبابها فيعالجها بعقل راجح وحكمةٍ تدعو إلى الإعجاب والانبهار.

ومما يدلِّل على صحة ما ذهبنا إليه، ويحسب له أنه كان سببًا مباشرًا في التعجيل بفتح المشرق، واستتباب الأمن فيه، وانتشار الإسلام في ربوعه وبقاعه النائية، وخلاصة الأمر أن الخليفة عمر أمر قادة الجيوش بعدم التقدم والتوسع في بلاد فارس، وبالمحافظة على البلاد المفتوحة، وذلك بسبب حرصه على عدم تعرض الجيش إلى مخاطر لا تحمد عقباها قد تحدق به إذا اتسعت الرقعة التي تحت سيطرته وصعب التشبث بها، وخاصة إذا ابتعد الجيش عن مراكز الإمداد والتموين.

وعلى الرغم من التزام القادة بتعليمات الخليفة، فإن الأمور لم تستتبَّ في تلك الأقاليم، إذ سرعان ما كانت تنقضُ عهودها في أول فرصة تسنح لها، مما يضطر جيوش الفتح إلى اقتحامها ثانية لإعادتها إلى حظيرة الإسلام، وقد أدى ذلك إلى حيرة الخليفة، بل راوده شكٌّ بعدالة القائمين على أمر تلك البقاع، والتزامهم بالعهود التي أبرموها مع سكانها.

ويوم أرسل أبو سبرة – أحد قادة الفتح في المشرق– وفداً إلى الخليفة فيه أنس بن مالك والأحنف بن قيس رفقة الهرمزان قائد الجيش الفارسي الذي تم أسره ليرى الخليفة رأيه فيه، اغتنمها الخليفة فرصة وأفضى للوفد بشكوكه وهواجسه، إلا أن

الوفد أخبره بالتزام الجميع بتطبيق أوامره وحسن سيرتهم في الرعية، والتزامهم بالعهود التي قطعوها على أنفسهم، فزاد ذلك من استغرابه وتعجبه، وطلب منهم تعليلاً لما يحدث، ولكنه لم يجد عند أحدهم إجابةً مقنعةً إلا من الأحنف كما ذكر الطبري في تاريخه ٢/٥٠١ — ٥٠٣ إذ قال: (يا أمير المؤمنين أخبرك، أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصار على ما بأيدينا، وأن ملك فارس حيٌّ بين أظهرهم، وأنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه ... ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعزِّ أُمَّتِهِ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ... فقال عمر: صدقتني وشرحت لي الأمر على حقِّهِ)، فكان أمره بالانسياح سنة ١٧هـ بمشورة الأحنف، وبعد نظره، وحسن تعليله.

وفي السنة المذكورة دفع عمر لواء خراسان إلى الأحنف كما ورد في المصدر السابق ٢/٥٤٥ — ٥٤٩ فوضع نصب عينيه ملاحقة يزدجرد وترويعه، والقضاء عليه، فلم يكلَّ عن مطاردته وتعقُّبه إلى أن قتل ورمي جثمانه بأحد الأنهر.

ومن الوقائع التي ذكرها البلاذري في فتوحاته ٣١٠ أن أبا موسى الأشعري حين فتح قُمَّ وقاشان وأصفهان كان الأحنف على مقدمة جيشه، وذكر أيضاً أنه أرسله إلى قاشان ففتحها عنوة.

وذكر ياقوت في معجم بلدانه بمادة قم ٤/٣٩٧ قيل: إن أبا موسى الأشعري أرسله لفتح قم، ففتحها عنوة.

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٨/٣١١ — ٣١٢ أن للأحنف (وقائع مشهورة، وقتل من أهل خراسان خلقاً كثيراً في قتال بينهما وانتصر عليهم)، وذكر أيضاً أنه هو الذي صالح أهل بلخ على أربعمائة ألف دينار في كل سنة.

ومما يدل على قوة بأسه، ومكانته بين قادة جيوش المشرق، أن الطبري ذكر في تاريخه ٢٤٤/٣ (كانت زحوف خراسان خمسة: أربعة لقيها الأحنف بن قيس).

وورد في ترجمته بدائرة المعارف الإسلامية أنه (اشترك أولا في القتال تحت قيادة أبي موسى، ففتح في عامي ٢٣هـ و٢٩هـ قاشان وأصفهان متخذاً من بلدة قُمٍّ قاعدة له، ثم اشترك في القتال من عام ٢٩هـ تحت قيادة عبد الله بن عامر الذي عهد إليه فتح خراسان ابتداءً من سنة ٣٠هـ فقاد الأحنف طليعة الجيش، وكان من أنشط القواد، وأكثرهم جلداً، وهو الذي فتح قوهستان، وهراة، ومرو الروذ، وغيرها، وسُمِّيَ حصن بالقرب من مرو الروذ مدَّةً طويلةً قصر الأحنف، تمجيداً له، كما سمي بقرب الحصن رُستاق الأحنف، وقد قاد جيوشه إلى طخارستان).

وذكر الطبري في تاريخه ٥٠٥/٢- ٥٠٦ أن الأحنف خرج إلى خراسان سنة ١٨هـ، وقد أمده الخليفة بمدد.

وفي ٢٤٦/٣ من المصدر السابق رواية أخرى تنصُّ على غزوه خراسان ومحاربة يزدجرد سنة ٢٢هـ، وكتب بفتحها إلى الخليفة في السنة نفسها.

والراجح أن أغلب مدن هذه البلاد فتحت غير مرة بسبب نقضها العهود وتمردها، ولم تستقر أحوالها إلا بعد مقتل يزدجرد، ويبدو أن خراسان قد فتحت مرتين على يد الأحنف، الأولى سنة ١٨هـ، والثانية سنة ٢٢هـ.

استمرَّ هذا القائد الفذ بملاحقة يزدجرد ملك فارس من مدينة إلى أخرى سنواتٍ طويلةً لم يكلَّ فيها عزمه، ولم يهن، فلحقه إلى مرو الشاهجان، فلما هرب منها إلى مرو الروذ لحقه الأحنف إليها، فهرب منها إلى بلخ فلحقه إليها، ولكنه انهزم أيضاً عبر نهرها.

وكان الأحنف سنة ٣٢هـ على مقدمة جيش ابن عامر الذي سار إلى كرمان فأخذ خراسان وافتتح تستهان، ثم خرج منها إلى هراة، فقاتل جيشها وهزمه، كما روى الطبري في تاريخه ٦٢٥/٢، وذكر ابن أعثم في فتوحه ٣٤٠ – ٣٤١ أن ابن عامر حينما أراد الذهاب إلى الحج استدعى (الأحنف بن قيس وقال له: يا أبا بحر، لقد اقترب موسم الحج، وإني عازم على أداء هذه الفريضة، وإني أعرف أحوال رجال العرب الذين هم معي، ولكنني اخترتك للنيابة عني في إمارة خراسان، فيجب عليك أن ترعى شؤون الإمارة وأحوال الناس بأحسن وجه ممكن كما هو معهود فيك من الكفاءة وحسن السيرة ... وإذ علم أهل مرو والطالقان بعودة عبد الله بن عامر اجتمعوا وأعدوا ثلاثين ألف مقاتل، فاتصل الخبر بالأحنف فجمع قواته، واستعد للحرب، وتوجه نحو الذين نقضوا العهد، ونزل في مكان يبعد فرسخين اثنين عن مرو الروذ حيث يعرف بقصر الأحنف، وأما جيش مرو والطالقان فقد اتجهوا إلى الميدان للحرب، ولما التقى الجيشان حمل عليهم الأحنف بن قيس مع جماعته وهم يكبرون، وتمكن من إصابة ثلاثة من القواد أصحاب الأعلام برمحه، ولما رأى الكفرة ذلك انهزموا لا يلوون على شيء فتعقبهم المسلمون يقتلونهم ويأسرون منهم، وقد غنموا غنائم، فما كان من الأحنف إلا أن حمد الله تعالى على هذا الفتح المبين ثم انطلق إلى بلخ ونزل على إحدى أبوابها وأقام معسكراً هناك، ولما رأى ملك بلخ جيش المسلمين امتلأ قلبه رعباً فأرسل إلى الأحنف شخصاً يطلب الصلح فأجابه الأحنف إلى الصلح على أن يؤدي أربعمائة ألف درهم نقداً، وكل عام يدفع مئة ألف درهم، وخمسمائة حمل من القمح وأخرى من الشعير)، وجاء في المصدر السابق أيضاً أن الأحنف فتح (بلداً بلداً،

ورستاقاً رستاقاً ويدور ما قدر عليه من بلاد خراسان ويجبي أموالها ويحمل خمس ذلك إلى عثمان).

ومن الوقائع التي تحسب للأحنف ما ذكره الطبري في تاريخه ٢/٥٤٧- ٥٤٨ أيضاً أن يزدجرد استنصر بخاقان الترك، فجهز له جيشاً قاده بنفسه قسَّمه على أربعة أقسام حاصرت جيش الأحنف حتى أصاب الهلع والخوف جنوده، ولكن القائد الشجاع لم ترهبه عدة العدو وعدده، ولعل تفكيره انحصر في إيجاد طريقة للتخلص من هذا الحصار، ولاشك أنه يعلم أن جيش الخاقان يفتتح هجومه بقرع الطبول، فكان الأحنف يهجم على أصحاب الطبول ليلاً من دون أن يخبر عسكره أو يشعر به عسكر عدوه، واستمرَّ على هذا المنوال ثلاث ليالٍ، كل مرة يرتجز فيها ويقول:

إنَّ على كلِّ رئيس حقَّا أن يخضبَ الصعدة أو تندقَّا

ثم يهجم فيقتل أصحاب الطبول مما أدى إلى تشاؤم الخاقان وانسحابه بجيشه.

وقد ذكر الواقعة السابقة الطبري في تاريخه ٢/٥٤٧- ٥٤٨ وابن قتيبة في معارفه ٢٤٢ برواية لا تبتعد كثيراً عن رواية الطبري، ونسبها إلى زمن الخليفة عمر بن الخطَّاب، وأشار إليها ابن سعد في طبقاته ٧/٩٥ أيضاً، وذكر ابن خلكان في وفياته ١/٩٦، ٦٩، ٣٥٩ شيئا كثيراً من ذلك.

وذكر الطبري في تاريخه ٢/٦٣٤ أثناء تعرضه لأحداث سنة ثلاث وثلاثين للهجرة: (وفيها قدَّم عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى خراسان وقد انتقض أهلها، ففتح المروَين: مرو الشاهجان صلحًا، ومرو الروذ بعد قتال شديد)، وله وقائع كثيرة في بلاد فارس كان النصر فيها جميعها حليفه، وقد امتد جهاده فيها أكثر من عقدين، في خلافة عمر وعثمان، وقد ذكر الطبري في تاريخه غير واقعة من غير ما ذكرنا.

ولم يخرج الأحنف سليماً من معارك الفتح، وإنما أضاف إلى عاهاته عاهة جديدة، إذ فقد إحدى عينيه في واحدة منها، وقد ذكر ابن حبيب في محبره ٣٠٣، وابن كثير في البداية والنهاية ٨/٨١١ أنه فقدها في معركة سمرقند، وقال ابن كثير: وقيل: إنه فقدها بسبب إصابته بمرض الجدري.

خلافة الإمام علي # وموقف الأحنف منها

كانت الأحداث قد تسارعت في المدينة يوم دخلها الأحنف آخر مرة في خلافة عثمان، وهو في طريقه إلى الحج سنة ٣٦هـ كما ذكر الطبري في تاريخه ٣/٣٤ وابن عبد ربه في عقده ٤/٢٩٤ - ٢٩٥، فما إن وضع رحاله فيها حتى أتاه آت يعلمه باجتماع القوم في مسجد رسول الله ~، (فانطلق فرأى الناس مجتمعين على نفر من الصحابة هم علي، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وفي هذه الأثناء دخل عثمان المسجد، وسأل عنهم، واستحلفهم عن بعض مواقفه من الإسلام، ومن نبيه الكريم ~ وموقفه منه، فأصدقوه وصدَّقوه).

ولا شك أن الأحنف كان مطلعاً على ما آلت إليه أمور خلافة عثمان، وإذا كانت النصوص التاريخية لم تنبئ عن دور أو مشاركة له مع الوفود التي طرقت أبواب المدينة من البصرة والكوفة ومصر، فإن ذلك لا يمنع أن يكون على بينة من اعتراضها على سياسة الخليفة وسيرة ولاته في أمصارهم، ويوم دخل المدينة لابد أنه أصبح على بينة من موقف الصفوة من سياسة عثمان، وعلى الرغم من أن الرجل لم يتحزب ضد أحد أو مع أحد، وعلى الرغم من عدم وقوفنا على ما يشعر باعتراضه على عثمان وسياسته ولاسيما أنه كان من كبار قادة جيوش الفتح في زمانه، فإنه شعر بما ستؤول إليه الأمور بعد الهرج والمرج الذي عمَّ أرجاء المدينة، في وقت كان ينبغي أن يكون فيه غالبية سكانها من المهاجرين والأنصار وأبنائهم في طريقهم لأداء فريضة الحجِّ، وعلى هذا فإن تغييراً كبير لابد أن يحدث، وإن أحداثاً جساماً لم يعرفها المجتمع الإسلامي في طريقها للوقوع لابد من مشاركة

غالبية الشخصيات الاعتبارية والسياسية والعسكرية فيها من دون استثناء، ولابد أن يكون الأحنف بينهم.

ويغلب على الظن أن الرجل المحنَّك تشوَّف المستقبل، ورأى أن يتسلَّح للأحداث قبل وقوعها، ولاسيما أنه لم يعد شخصية عابرة في العراق، فهو من كبار القادة، وهو رأس فخذ كبير من أفخاذ قبيلة تميم في البصرة، فسارع لاستشارة طلحة والزبير، والسيدة عائشة من بعد فيما ينبغي عليه فعله، بل قل: سارع لاستشارة الصفوة التي بيدها الحل والعقد بعد ذهاب عثمان، قال: (فلقيت طلحة والزبير، فقلت من تأمراني به وترضيانه لي، فإني لا أرى هذا الرجل إلا مقتولاً، قالا: علي، فقلت: أتأمراني به وترضيانه لي؟ قالا: نعم، فانطلقت حتى قدمت مكة، فبينا نحن بها إذ أتانا قتل عثمان، وبها عائشة، فلقيتها وقلت: من تأمريني أن أبايع؟ قالت: علي. قلت: تأمريني به وترضينه لي؟ قالت: نعم، فمررت على علي بالمدينة فبايعته، ثم رجعت إلى أهلي بالبصرة، ولا أرى الأمر إلا قد استقام). وقد ذكر الرواية السابقة الطبري في تاريخه ٣/٣٤ - ٣٥، والشيخ المفيد في جمله ١٤٣.

ولا شك أن عدم استشارته الإمام علي في أمر الاستخلاف قد يثير تساؤل الباحث أو المؤرخ، فقد كان في المدينة، ومن غير الطبيعي استشارة طلحة والزبير واستثناء الإمام، وهو أبرز شخصية تدور حولها الأحداث في ذلك الفلك، فلماذا لم يستشره كما استشار طلحة والزبير، وعائشة من بعد؟ يراودني يقين أنه قبل الاستشارة رجح عنده أن المرشح للخلافة هو علي وليس غيره، وإن اجتمع عليه ذلك النفر فليس أمام استخلافه من عائق، لذا فإنه يوم بايع كان على يقين من استتباب الأمور.

موقفه من واقعة الجمل

وهكذا عاد الأحنف إلى البصرة لا يراوده شك في استتباب الأمور، بعد أن أصبح على بينة من موقف صفوة الصحابة من بيعة الإمام ، ولكن الفتنة طلعت، ولم يشعر إلا وهي قاب قوسين أو أدنى من مضاربه، بل وجد نفسه في موقف لا يحسد عليه بعد أن أتاه آتٍ، على ما ذُكِر إجمالاً في فتوح ابن أعثم ٤٦١/١، وتفصيلاً في تاريخ الطبري ٣٤/٣ - ٣٥، وجمل الشيخ المفيد ٢٩٥ - ٢٩٦، وقال له: (هذه عائشة وطلحة والزبير قد نزلوا جانب الخريبة، فقلت: ما جاء بهم، قال: أرسلوا إليك يدعونك يستنصرون بك على دم عثمان رضي الله عنه، فأتاني أفضع أمرٍ أتاني قط، فقلت: إنَّ خذلاني هؤلاء، ومعهم أمُّ المؤمنين، وحواري رسول الله ~ لشديد، وإنَّ قتالي رجلاً ابن عم رسول الله ~ قد أمروني ببيعته لشديد، فلما أتيتهم قالوا: جئنا لنستنصر على دم عثمان)، فناشدهم الأحنف الله، مذكراً بما أمروه به، فصدَّقوه، ولكنهم قالوا له: (ولكنه بدَّل)، وطلبوا منه الانحياز إلى جانبهم ومناصرتهم.

ويبدو أن غالبية القبائل التي استوطنت البصرة قد انحازت لأصحاب الجمل بما في ذلك قبيلة تميم بأفخاذها، إلا أن الأحنف كان يرى أن الحقَّ مع الإمام ، وقد بايعه عن إيمان ومشورة، ولكنه في موقف يصعب الإعلان عن الانحياز إليه، فعلى رأس الجيش أم المؤمنين عائشة وعلى يمينها وشمالها طلحة والزبير، هذا من صفوة الصحابة، وذاك ابن عمة رسول الله، وكلاهما من أصحاب السابقة، لذا فقد كان عليه معالجة الموقف برويَّة وحكمة، ولاسيما بعد أن تمكن القوم من البصرة، وانقادت لهم قبائلها بما في ذلك غالبية قبيلته تميم، فأجابهم بما لم يجدوا بدّاً من

قبوله إذ قال كما روى الطبري في تاريخه ٣٥/٣: (والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين وحواري رسول الله ~، ولا أقاتل رجلاً ابن عم رسول الله أمرتموني ببيعته، اختاروا مني واحدة من ثلاث خصال: إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضي الله عز وجل من أمره ما قضى، أو ألحق بمكة فأكون فيها حتى يقضي الله عز وجل من أمره ما قضى، أو أعتزل فأكون قريباً حتى يقضي الله عز وجل من أمره ما قضى؟ قالوا: نأتمر ثم نرسل إليك، قال: فأتمروا وقالوا: نفتح له باب الجسر يلحق به المفارق والخاذل أو يلحق بمكة فَيُفَحِّشكم في قريش، ويخبرهم بأخباركم. اجعلوه هاهنا قريباً حيث تنظرون إليه، فاعتزل بالجلحاء من البصرة على فرسخين، واعتزل معه ستة آلاف من بني تميم).

ولم يقف الأحنف عند هذا الحد، وإنما رام إبعاد سيوف تميم قاطبة عن الاشتراك في الحرب، فقد زاره هلال بن وكيع الحنظلي — وهو من كبار رؤوس تميم، ويبدو أنه في بداية أمره لم يشأ الاشتراك مع أصحاب الجمل أيضاً، وحاول التواري عنهم، ولكن أمَّه قرعته، وقالت كما ورد في شرح النهج ٢١٠/٩: (ما رأيت مثلك! أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما)، ولم تزل به حتى ظهر فبايعهما ومعه بنو عمرو بن تميم كلهم، وبنو حنظلة — حين بلغه موقفه من أصحاب الجمل، وقال كما ورد في كتاب الجمل ٢٩٥: (ما يقول سيدنا في هذا الأمر؟ فقال الأحنف: إنما أكون سيدكم غداً إذا قُتِلْتَ وبقيتُ أنا. فقال هلال: بل أنت سيدنا اليوم وشيخنا. فقال الأحنف: أنا شيخكم المعصيُّ وأنت الشاب المطاع، اقعد في بيتك ولا تخرج مع طلحة والزبير، فأبى أن يرضى، ثم دعا تميماً كلَّهم فتابعوه إلا نفر منهم)، وقد قتل من جراء فعلته في ذلك اليوم.

وكانت معركة الجمل، وحدث فيها ما حدث، وانقشعت بانتصار الإمام ، وتفرق جيش أصحاب الجمل بعد تجديد بيعتهم للإمام، وانحدر الأحنف إلى معسكر أمير المؤمنين بعد أن جدد بيعته كما روى الطبري في تاريخه ٣/ ٥٩، وأعلمه بمقتل ابن الزبير وكان برفقته ابن جرموز — في رواية —، وسلمه سيفه فأعاده الإمام إلى عائشة.

دور الأحنف في مصرع الزبير

ذكر الشيخ المفيد في الجمل روايات حول مصرع الزبير ودور الأحنف فيه، منها في ٢٨٧ - ٢٨٨ عن المفضل بن فَضالة أن الزبير (هرب على فرس يدعى بذي الخمار حتى وقع بسَفَوان، فمرَّ بعبد الله ابن سعيد المجاشعي، وابن مُطَرِّح السعدي فقالا له: يا حواري رسول الله ~ أنت في ذمتنا لا يصل إليك أحد، فأقبلَ معهما فهو يسير مع الرجلين إذ أُتِيَ الأحنف بن قيس برجل فقال له: أريد أن أُسِرَّ إليك سرّاً. فقال: ادن منِّي. فدنا منه فقال: هذا الزبير قد هرب وإني رأيته بين رجلين من بني مجاشعٍ ومنقرٍ، وأظنه يريد التوجه إلى المدينة. فرفع الأحنف صوته وقال: ما أصنع إن كان الزبير ألقى الفتنة بين المسلمين حتى ضرب بعضهم بعضاً، ثم هو يريد أن يرجع إلى أهله بالمدينة سالماً. فسمعه ابن جرموز فنهض ومعه رجل يقال له فضالة بن حابس، وعلما أن الأحنف إنما رفع صوته بذكر الزبير لكراهة أن يَسْلمَ وإيثاره أن يقتل. فاتَّبعاه جميعاً، فلما رآهما من كان مع الزبير قالوا له: هذا ابن جرموز! وإنا نخافه عليك. فقال لهم الزبير: أنا أكفيكم ابن جرموز فاكفوني ابن حابس، فحمل عمرو على الزبير فعطف عليه فقال: يا فضالة أعنِّي فإن الرجل قاتلي. فأعانه، وحمل ابن جرموز فقتله واحتزَّ رأسه وأتى به إلى الأحنف فبعثه الأحنف إلى أمير المؤمنين ... فدخل وأمير المؤمنين متَّكِئ وبين يديه تُرس عليه أقراص من طعام الشعير، فسلم عليه وهنَّأه بالفتح عن الأحنف فقال: أنا رسوله إليك، وقد قتلت الزبير، وهذا رأسه وسيفُه! فألقاهما بين يديه. فقال : كيف قتلته وما كان من أمره؟ فحدثته كيف صنعت به. فقال: ناولني سيفه. فناولته إياه،

فتناوله واستلَّه قال: سيفه أعرفه! أما والله لقد قاتل بين يدي رسول الله ~ غير مرَّة ولكنه الحين ومصارع السوء).

وأخرى في ٣٨٩ — ٤٩٠ عن ابن أبي عون قال: (هرب الزبير فارّاً إلى المدينة حتى أتى وادي السباع فرفع الأحنف صوته وقال: ما أصنع بالزبير قد لفَّ بين غارين من الناس حتى قتل بعضهم بعضاً، ثم هو يريد اللحاق بأهله، فسمع ذلك ابن جرموز فخرج في طلبه واتَّبعه رجل من مجاشع حتى لحقاه، فلما رآهما الزبير حذِرهما. فقالا: يا حواري رسول الله! أنت في ذمتنا لا يصل إليك أحد، وسايره ابن جرموز فبينا هو يسايره ويستأخر والزبير يفارقه، قال: يا أبا عبد الله انزع درعك فاجعلها على فرسك فإنها تَثْقُلُك وتُعييك. فنزعها الزبير وجعل عمرو بن جرموز ينكص ويتأخر، والزبير يناديه أن يلحقه وهو يجري بفرسه، ثم ينحاز عنه حتى اطمأن إليه ولم ينكر تأخره عنه، فحمل عليه وطعنه بين كتفيه فأخرج السنان من ثدييه ونزل فاحتزَّ رأسه وجاء به إلى الأحنف، فأنفذه إلى أمير المؤمنين..)، وقد ذكر قريباً من هذا المسعودي في مروجه ٢/٣٧٢.

وذكر الطبري في تاريخه ٣/٥٥ حول مصرع الزبير ودور الأحنف فيه رواية كتبها إليه السريّ جاء فيها: (لما انهزم الناس يوم الجمل عن طلحة والزبير، ومضى الزبير رضي الله عنه حتى مرَّ بعسكر الأحنف، فلما رآه وأخبر به قال: والله ما هذا بخيار، وقال للناس: من يأتينا بخبره؟ فقال عمرو بن جرموز لأصحابه: أنا، فأتبعه، فلما لحقه نظر إليه الزبير — وكان شديد الغضب — قال: ما وراءك؟ قال: إنما أردت أن أسألك، فقال غلام للزبير يدعى عطية كان معه: إنه مُعِدٌّ، فقال: ما يهولك من رجل! وحضرت الصلاة، فقال ابن جرموز: الصلاة، فقال الزبير: الصلاة، فنزلا، واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه في جُرُبَّان درعه، فقتله،

وأخذ فرسه وخاتمه وسلاحه، وخلّى عن الغلام، فدفنه بوادي السباع، ورجع إلى الناس بالخبر. فأما الأحنف فقال: والله ما أدري أحسنت أم أسأت! ثم انحدر إلى علي وابن جرموز معه، فدخل عليه، فأخبره، فدعا بالسيف، فقال: سيف طالما جلّى الكرب عن وجه رسول الله ~! وبعث بذلك إلى عائشة).

وذكر المسعودي في كتابه الإمامة والسياسة ٦٩ حول دور الأحنف في مقتل الزبير مفادها أن ابن جرموز التقى الزبير وحاوره محاورة تستدعي النظر، ثم سايره، (ثم أتى الأحنف بن قيس، فسارَّه بمكان الزبير عنده، وبقوله، فقال له الأحنف: اقتله قتله الله مخادعاً...)، وذكر أيضاً في مروجه ٣٧٢/٢ (وقيل: إن الأحنف بن قيس قتله بإرساله من أرسل من قومه).

وروى أحمد بن داود الدينوري في كتابه الأخبار الطوال ١٤٨ رواية تقترب وتبتعد في بعض جوانبها عن الروايات السابقة، ومفادها أن الزبير خرج من ناحية الخريبة بعد أن أمر غلمانه بالالتحاق به، فمر بالأحنف وهو جالس بفناء داره وقومه حوله، فقال: (هذا الزبير قد انصرف لأمر، فهل فيكم من يأتينا بخبره، فقال عمرو بن جرموز: أنا آتيك بخبره)، فالتحق به، وسأله عن وجهته، فأخبره أنه ما له في الأمر من بصيرة، وتسايرا إلى الخريبة. فلما دنا وقت الصلاة قال الزبير: أريد أن أقضيها، فقال عمرو: وأنا أريد، فقال الزبير: (أنت منّي في أمان، فهل أنا منك كذلك؟ قال: نعم.. فقام الزبير في الصلاة، فلما سجد حمل عليه عمرو بالسيف، فضربه حتى قتله، وأخذ درعه وسيفه وفرسه، وأقبل حتى أتى عليّاً وهو واقف والناس يجتلدون بالسيوف، فألقى سلاحه بين يديه، فلما نظر علي رضي الله عنه إلى السيف قال: إن هذا السيف طالما فرج به صاحبه الكرب عن وجه رسول الله ~. ابشر يا قاتل ابن صفية بالنار)، وذكر ابن حبان في كتابه الثقات ٣٨٣ أن الإمام

حينما أتاه ابن جرموز قال له : (سمعت رسول الله ~ يقول : قاتل ابن صفية بالنار، فقال ابن جرموز : إن قتلنا معكم فنحن بالنار، وإن قاتلناكم فنحن بالنار، ثم بعج بطنه بسيفه فقتل نفسه)، وأستبعد أن يكون الأحنف قد دفع ابن جرموز لقتل الزبير بصورة أو بأخرى، نعم لقد كان ناقماً على موقفه لأنه شارك في دفع الناس إلى تلك الفتنة التي ذهب بسببها آلاف المسلمين، وأحدثت شرخاً كبيراً بينهم، وقد يكون له دور، ولكنه ليس بذلك الوضوح، إلاَّ أن الذي لا شك فيه أنه كان سبباً مباشراً في مصرعه، ولو كان، فمن الصعب أن يكون من المقربين إلى بيت آل الزبير من بعد، ولكان من كبير همهم قتله بعد استيلائهم على العراق.

الأحنف في مجلس أمير المؤمنين

وذكر الطبري أيضاً حول موقف الأحنف من الإمام بعد معركة الجمل ثلاث روايات، الأولى في ٥٦/٣ من تاريخه: وتذهب إلى أن الإمام علي أقبل على الأحنف وقال له معاتباً: (تربَّصتَ) فقال: (ما كنت أراني إلا قد أحسنت، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فأرفق، فإن طريقك الذي سلكت بعيد، وأنت إلي غداً أحوج منك أمس، فاعرف إحساني، واستصف مودتي لغدٍ، ولا تقولن مثل هذا فإني لم أزل لك ناصحاً).

والثانية ذكرها في ٣٤/٣ من تاريخه، وجاء فيها: خرج الأحنف بن قيس وبنو سعد (مشمرين ولا يرون القتال مع علي بن أبي طالب، فقال يا علي: إن قومنا بالبصرة يرون أنك إن ظهرت عليهم غداً أنك تقتل رجالهم وتسبي نساءهم فقال: ما مثلي يخاف هذا منه، وهل يحلُّ هذا إلا ممن تولى وكفر، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ۞ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾، وهم قوم مسلمون، هل أنت مغن عني قومك؟ قال: نعم، واختر مني واحدة من اثنتين، إما أن أكون آتيك فأكون معك بنفسي، وإما أن أكفَّ عنك عشرة آلاف سيف، فرجع إلى الناس فدعاهم إلى القعود، وقد بدأ فقال: يال خندف، فأجاب ناس، ثم نادى: يال تميم، فأجابه ناس، ثم نادى يال سعد، فلم يبق سعدي إلا أجابه، فاعتزل بهم، ثم نظر ما يصنع الناس، فلما وقع القتال، وظفر علي جاءوا وافرين فدخلوا فيما دخل فيه الناس).

أما الثالثة فقد وردت في ٣٦/٣ من تاريخه، ويبدو أنها متصلة بالرواية الأولى، وهي فيه عن قتادة قال: (نزل علي بالزاوية، وأقام أياماً، فأرسل إليه الأحنف:

إن شئت أتيتك، وإن شئت كففت عنك أربعة آلاف سيف، فأرسل إليه علي: كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال؟ قال: إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم. فأرسل إليه: كُفَّ من قدرت على كفِّه).

وهكذا تلحظ عقلانية الأحنف في حواره مع ابن الزبير وطلحة من جهة، ومع علي من جهة أخرى، ومع قومه من جهة ثالثة، إذ يبدو من النصوص اندفاعهم إلى الحرب مع أصحاب الجمل، وهو أميل إلى الحرب مع الإمام، فقد بايعه بعد إيمان ومشورة.

ولا شك أن عدم مشاركته في الحرب كانت من أسباب سرعة انتصار جيش الإمام، إذ كفَّ عنه آلاف المقاتلين، كان بالإمكان أن ينحازوا إلى الجهة الأخرى، وهكذا حافظ على مكانته في قبيلته، وكفَّ خطراً عنها وعن الإمام، وحينما خرج من البصرة إلى الكوفة تبعه الأحنف إليها كما ذكر الشيخ المفيد في الجمل ٤٢٢.

موقفه من معركة صفين ودوره فيها

جاهد الإمام # في تجنيب المسلمين حرباً أخرى بكل الوسائل الممكنة، بالترهيب من عقاب نازل وإن كان بعد حين، وبدفع حجج باطل معاوية بكل العقل والحكمة والأناة والروية، ولكن رايات العدوان أبت إلا الشموخ بباطلها في معركتها الدنيوية، تاركة وراءها مثل الإسلام وقيمه، وكان قدر الله واقع لا محالة في قتال من ترك الحق وعدل عنه إلى الباطل.

وفي أثناء التحضير لمعركة صفين كان الأحنف حاضراً وصادقاً في نصرته، إذ قال على ما ورد في فتوح ابن أعثم: (يا أمير المؤمنين إنه وإن لم يكن بنو سعد بن زيد مناة بن تميم نصرتك يوم الجمل، فإنها تنصرك اليوم، وذلك أنهم شكوا في طلحة والزبير، ولم يشكوا في معاوية، وعشائرنا بالبصرة، فإن رأيت كتبنا لهم فقدموا علينا فقاتلنا بهم عدوك، وانتصفنا بهم من الناس، وأدركوا اليوم ما فاتهم بالأمس. قال: وتتابعت بنو تميم على قول الأحنف، فقال له علي رضي الله عنه: قد أذنت لك أنجز فاكتب إلى قومك. قال: فكتب الأحنف إلى قومه من بني سعد: أما بعد فإنه لم يبق أحد من بني تميم إلا وقد أخذوا برأي سيدهم غيركم، وبرأيه فيكم نلتم ما رجوتم وأمنتم ما خفتم، وأخبركم أننا ببرهم حتى كدنا لا نعرف إلا بهم، وقد عزموا على المسير إلى الشام مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فأقبلوا إلينا ولا تتباطؤوا، فإن من العطايا حرماناً ومن النصر خذلاناً، فحرمان العطاء القلّة، وحرمان النصر الإبطاء، ولن تقضى الحقوق إلا بالرضا، وقد يرضى المضطر بدون الأمل والسلام)، وقد ذكر قريباً من هذا المسعودي في كتابه الإمامة والسياسة ٧٣، والخبر عند نصر بن

مزاحم في كتابه وقعة صفين ٢٤ — ٢٥ ، وفيه أن ما كتبه كان في أثناء قدومه من البصرة على أمير المؤمنين ، وقدوم جارية بن قدامة، وحارثة بن بدر، وزيد بن جبلة، وأعين بن ضُبيعة.

ويبدو أن الأحنف عاد إلى البصرة قبل التحاق بني سعد بجيش الإمام ، فقد ذكر نصر أيضاً في ١١٦ من كتابه السابق الذكر أن الإمام كتب لعبد الله بن عباس واليه على البصرة أن يشخص إليه المسلمين في مصره ويرغبهم في الجهاد، فخطب فيهم ابن عباس، وحينما أتم كلامه كان الأحنف أول القائمين فقال: (نعم والله لنجيبنَّك، ولنخرجنَّ معك على العسرة واليسر، والرضا والكره، نحتسب في ذلك الخير، ونأمل من الله العظيم من الأجر)، ويوم خرج ابن عباس بالبصريين كان الأحنف على تميم وضبة والرباب كما ذكر نصر، وذكر في ٢٠٥ أيضاً أن الإمام حينما عقد الألوية جعله على تميم البصرة.

والظاهر أنه في أثناء المعركة التي دارت رحاها سنة ٣٧هـ كان الأحنف من فرسانها البارزين، فقد ذكر نصر في ٣٤٠ من كتابه السابق الذكر أنه كان بجانب عمار بن ياسر، وإنه دنا برفقته من هاشم بن عتبة حامل لواء الإمام في اليوم الذي استشهد فيه عمار رضوان الله عليه. ومما روي عنه في ٤٠٦ من المصدر السابق أنه تقدم في أحد أيام صفين وقال: (يا أهل العراق، والله لا تصيبون هذا الأمر أذلَّ عُنُقاً منه اليوم، قد كشف القوم عنكم قناع الحياء، وما يقاتلون على دين، وما يصبرون إلاَّ حياء، فتقدَّموا. فقالوا: إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمسِ فما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: تقدموا في موضع التقدم، وتأخروا في موضع التأخر. تقدموا من قبلِ أن يتقدموا إليكم).

وحينما شعر أمير المؤمنين بميل جيشه إلى الموادعة قال لهم من بين ما قال على ما ذكر المسعودي في الإمامة والسياسة ١٠٤ : (أيها الناس، إني لم أزل من أمري على ما أحب حتى قدحتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وهي لعدوكم أنهك. وقد كنت بالأمس أميراً، فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت ناهياً فأصبحت اليوم منهيّاً، فليس لي أن أحملكم على ما تكرهون)، وأورد المسعودي ما قاله وجوه صحابة الإمام في حث الجيش على القتال، وكان منهم الأحنف الذي قال كما ورد في ١٠٧ من المصدر السابق : (يا أمير المؤمنين، إن الناس بين ماض وواقف، وقائل وساكت، وكل في موضعه حسن، وإنه لو نكل الآخر عن الأول لم يقل شيئاً، إلا أن يقول اليوم ما قيل أمس، ولكنه حقٌّ يقضى، ولم نقاتل القوم لنا ولا لك، وإنما قاتلناهم لله، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله، فإنك أولى بالحق، وأحقنا بالتوفيق، ولا أرى إلا القتال).

موقفه من خدعة التحكيم

ومن المواقف التي تحسب له في واقعة صفين ما ذكره الطبري في تاريخه ٣/١٠٢ – ١٠٣ ، وأجمله الذهبي في عهد الخلفاء الراشدين ٥٤١ والقلقشندي في صبحه ١٤/٩١ – ٩٢ ، إذ اعترض فيها الأحنف على اختيار أبي موسى حكماً، ولاسيما أنه يعرفه من أيام فتوح بلاد فارس، واقترح على الإمام أن يكون هو أحد الحكمين، أو يكون مساعداً للحكم الذي يقع عليه الاختيار، لأنه يعرف أيضاً عمرو بن العاص، ويعرف مدى دهائه فقال: (يا أمير المؤمنين إنك قد رُميت بحجر الأرض، وبمن حارب الله ورسوله أنفَ الإسلام، وإني قد عجمت هذا الرجل – أي الأشعري – وحلبت شطره، فوجدته كليل الشفرة، قريب القعر، وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكماً، فاجعلني ثانياً أو ثالثاً، فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها، ولن يحلَّ عقدةً أعقدُها إلا عقدتُ له أخرى أحكم منها). والرواية تريك مدى قرب الرجل من الإمام ، وقرب الإمام منه، ولاسيما أن الخبر يسترسل بالصورة الآتية: (فأبى الناس إلا أبا موسى والرضى بالكتاب، فقال الأحنف، فإن أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال)، وقد ذكر قريباً من هذا نصر في كتابه السابق الذكر ٥٠١ – ٥٠٢ ، والمسعودي في الإمامة والسياسة ١١٤ ، ويفهم من النص أيضاً أن الإمام قد ارتضاه حكماً، ولكن القوم أبوا إلا أبا موسى.

ويوم كادت الفتنة تقع في جيش أمير المؤمنين بسبب موقف الأشعث الذي أصرَّ على قبول التحكيم، كما أصرَّ على أن يكون الحكم أبا موسى الأشعري، فاعترضه عروة بن أدية التميمي وضربه بسيفه، فأخطأه وأصاب

فرسه، فقرر أصحاب ابن الأشعث ترك جيش الإمام لولا وساطة الأحنف واعتذاره من الأشعث، كما ذكر الطبري في تاريخه ١٠٤/٣ ونصر في وقعة صفين ٥١٢.

وحين اعترض ابن العاص على كتابة إمرة المؤمنين لعلي في كتاب الصلح بقوله: (هو أميركم، فأما أميرنا فلا) قال الأحنف لأمير المؤمنين : (لا تمح اسم إمارة المؤمنين فإني أتخوَّف إن محوتها ألا ترجع إليك أبداً، لا تمحها وإن قتل الناس بعضهم بعضاً)، ولكن المقادير جرت على غير ما يرغب الإمام، وعلى غير ما يحب الأحنف، إذ أجبر على محوها فقال: (الله أكبر سُنَّة بسُنَّة، ومثل بمثل، إني لكاتب بين يدي رسول الله يوم الحديبية إذ قالوا: لست رسول الله ولا نشهد لك به، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فكتبته)، وقد ذكر هذا الطبري في تاريخه ١٠٣/٣ وقاربه نصر في الصحيفة ٥٠٨ من كتابه السابق الذكر أيضاً.

وقبل أن يرحل التقى أبا موسى – الذي رافقه طويلاً أيام الفتح قائداً ومستشاراً – بحجة وداعه وقال له ناصحاً في إشفاق على مصير إمامه من عمرو بن العاص: (يا أبا موسى، اعرف خطب هذا الأمر، واعلم أن له ما بعده، وإنك إن أضعت العراق فلا عراق، فاتق الله، وإذا لقيت عمرو بن العاص غداً فلا تبدأ بالسلام، فإنها وإن كانت سُنَّة إلاَّ أنه ليس أهلها، ولا تعطه يدك فإنها أمانة، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فإنها خدعة، ولا تلقه وحده، وأحذر أن يكلمك في بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود، فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعليٍّ فخيره أن يختار أهل العراق من قريش والشام من شاؤوا، فإنهم يولونا الخيار فنختار من نريد، وإن أبوا، اختار أهل الشام من قريش العراق من شاؤوا، فإن فعلوا كان الأمر فينا)، ولكن أبا موسى لم يعر الأحنف أذناً صاغية، وردَّ عليه

بقوله : (قد سمعت ما قلت)، فعرف الأحنف نتيجة التحكيم قبل وقوعه، وذهب إلى إمامه وقال له : (يا أمير المؤمنين لا أرانا إلاَّ بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك) فأجابه الإمام (يا أحنف، إن الله غالب على أمره) فأجابه الأحنف (فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين)، والرواية السابقة ذكرها المسعودي في الإمامة والسياسة ١١٦، وذكر قريباً من هذا نصر في وقعة صفين ٥٣٦ – ٣٧٦ وذكر أن الأحنف كان آخر من ودع أبا موسى الأشعري فلما رجع منه (أتى عليّاً فقال : يا أمير لمؤمنين، أخرج والله أبو موسى زبدة سقائه في أول مخضه، لا أرانا إلاَّ بعثنا رجلاً لا ينكر خلعك. فقال علي : يا أحنف، إن الله غالب على أمره. قال : فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين. وفشا أمر الأحنف وأبي موسى بين الناس)، وأرسل غير شاعر أبياتاً لأبي موسى يحذرونه من الوقوع في حبائل عمرو.

واستمرَّ الأحنف قائداً لجيش البصرة أو في طليعته لم يتخلف، ولم يعتل لحين استشهاد الإمام ، ويوم راسل الإمام عبد الله بن عباس واليه على البصرة لإرسال حملة السلاح فيها لمعاودة حرب معاوية وجيشه، قرأ كتابه على أهلها وأمرهم بالشخوص مع الأحنف فلحق به منهم ألف وخمسمائة رجل كما ذكر الطبري في تاريخه ١١٧/٣، لعل غالبيتهم من رهطه، وبقي على وفائه لإمامه بعد استشهاده، بل كاد يتعرض للقتل غير مرة بسبب ذلك الوفاء، وله من المواقف ما يستحق النظر سنمرُّ على بعضها أثناء حديثنا عن علاقته بمعاوية.

موقفه من خلافة الإمام الحسن

وإذا كانت تلك مواقفه من أمير المؤمنين ، فيبدو أنه قد التزم ببيعة الإمام الحسن # قبل صلح الذي اضطر إليه وبعده، أما قبل الصلح فلم أقف على نص فيه معارضة لاستخلافه أو الاصطفاف مع أعدائه، وقد عده الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمامين أمير المؤمنين وولده الحسن ^ كما نقل المامقاني في تنقيح القال ٨/٢٨٩ ، وأما بعد الصلح الذي كان من بين بنوده أن يلي الخلافة الإمام الحسن بعد معاوية فإن له موقف قاطع معه حين أراد تولية ولده يزيد في حياة الإمام بنصيحة المغيرة بن شعبة كما ذكر المسعودي في الإمامة والسياسة ١٤٥– ١٤٧ ، فقد بدا لمعاوية الأخذ بها، وانتهز فرصة اجتماع وفود الأمصار عنده بدمشق، ولعله اختلق الأسباب لاجتماعهم عنده، وخلا بالضحاك بن قيس وطلب منه بعد أن ينتهي من خطبته فيهم أن يأذن له بالكلام، وأن يذكر يزيد، ففعل، وتابعه على ذلك وجوه الوفود، وصوَّبوا رأيه في تولية يزيد، فقال معاوية: (أوَكلكم قد أجمع رأيه على ما ذكرنا؟ فقالوا كلنا قد أجمع رأيه على ما ذكرنا. قال: فأين الأحنف؟ فأجابه، قال: ألا تتكلم؟ فقام الأحنف، – وتكلم بأسلوب هادئ رزين فبين خطل رأيهم من دون إثارة أو تهور–، فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: إن الناس قد أمسكوا في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتنف، ويزيد بن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره يا أمير المؤمنين، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك، ثم اعص أمر من يأمرك، لا يغررك من يشير عليك، ولا ينظر لك، وأنت أنظر للجماعة، وأعلم باستقامة الطاعة، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا، ولا يبايعون ليزيد ما كان الحسن حيّاً)، فأغضبت

كلمته الضحاك بن قيس، فقام ثانية، واتهم أهل العراق بالشقاق والنفاق، وعرَّض بالحسن وأهل بيته، فقام الأحنف ثانية هذه المرَّة، فغير من أسلوبه وأعرب عمَّا بنفسه بكل جرأة وشجاعة، واتخذ موقفاً ما وقفه أحد من شيعة أهل البيت عليهم السلام في مجلس معاوية وقال كما ورد في المصدر السابق: (يا أمير المؤمنين، إنا قد فررنا عنك قريشاً، فوجدناك أكرمها زنداً، وأشدها عقداً، وأوفاها عقداً، وقد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة، ولم تظهر عليها قصعاً، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت، ليكون له الأمر من بعدك، فإن تف فأنت أهل للوفاء، وإن تغدر تعلم والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً، وأذرعاً شداداً، وسيوفاً حداداً، إن تدن منه شبراً من غدر، تجد وراءه باعاً من نصر، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا عليّاً وحسناً منذ أحبوهما، وما نزل عليهم في ذلك غير من السماء، وإن السيوف شهروها عليك مع علي في يوم صفين لعلى عواتقهم، والقلوب التي أبغضوك بها لبين جوانحهم، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علي).

الفارس الذي لم تهزمه الأحداث

لم يكن معاوية بن أبي سفيان شخصية عابرة في تاريخ الإسلام السياسي، ولاسيما أن الظروف هيَّأت له ما لم تهيئه لأحد من قريش فهو ابن سلطة رأس المال، تربَّى في بيت الدهاء والسياسة، ويوم واتته الفرصة بولاية الشام أحكم سيطرته عليها بحكمة ودهاء، ويوم خلص له الحكم علم أنه لن يستتب له إلا باستقرار الأوضاع في العراق الذي لابد من ترويضه على الرغم من جراحه التي ما تزال تنزف دماً، وكان يعلم مدى كراهية أغلب القبائل التي استوطنته للحكم الأموي، فرأى أن يحيد شيوخه وقادته ورؤوسه بأية وسيلة من الوسائل، فوضعهم تحت نظره لا يغفل عنهم طرفة عين، ورأى إن لم ينجح باستصفاء ودهم وسلِّ الكراهية من نفوسهم كما فعل مع الشاميين، فإنه يستطيع كبح جماحهم بطرق كثيرة، وبأقل الخسائر الممكنة، فاختار لولاية العراق أكثر الرجال حنكة ودهاء ومعرفة بالعراقيين وكان في مقدمتهم المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه الذي بنسبه إلى أبيه أبي سفيان، ومن ثم ولده عبيد الله بن زياد.

وكان الأحنف في مقدمة الرجال الذين وضعهم معاوية نصب عينيه، فهو لا ينسى بلاءه في معركة صفين، كما لم ينس موقفه من التحكيم، ولم ينس موقفه أيضاً من معركة الجمل، وهو يقدِّر شجاعته وحكمته، كما أن الأحنف لم ينس ما فعله معاوية، فكان كلٌّ منهما يبادل الآخر بغضاً ببغض، وكراهية بمثلها، وكان كلٌّ منهما يقدر دهاء صاحبه وقوته، ولكن حكمتهما لم تصعد الأحداث فيما بينهما إلى حدِّ القطيعة أو الحرب.

ومما رواه المامقاني في تنقيح الرجال ٢٩١/٨ – ٢٩٢ أن الأحنف (وفد إلى معاوية وحارثة بن قدامة والحبَّاب بن يزيد، فقال معاوية للأحنف: أنت الساعي على أمير المؤمنين عثمان، وخاذل أم المؤمنين عائشة، والوارد الماء على علي بصفين؟ فقال: يا أمير من ذاك ما أعرف، ومنه ما أنكر، أمَّا أمير المؤمنين عثمان، فأنتم معشر قريش حصرتموه بالمدينة، والدار منَّا عنه نازحة، وقد حضره المهاجرون والأنصار عنه بمعزل، وكنتم بين خاذل وقاتل، وأما عائشة فإني خذلتها في طول الباع، ورحب الشرب، وذلك أني لم أجد في كتاب الله إلاَّ أن تقرّ في بيتها، وأما ورودي الماء بصفين، فإني وردت حين أردت أن تقطع رقابنا عطشاً)، ولم يشأ معاوية قطع شعرته وتصعيد الموقف مع الأحنف، ولما أراد الانصراف ودعه، كما لم يودع غيره، وأمر له (بخمسين ألف درهم، ولأصحابه بصلة، فقال للأحنف حين ودعه: حاجتك؟ قال: تدرّ على الناس عطياتهم وأرزاقهم، فإن سألت المدد أتاك منَّا رجال سليمة الطاعة، شديدة النكاية)، وتلاحظ من الرواية السابقة أن الأحنف لم يتنصل عن مواقفه السابقة ولم يعتذر عنها، وأجابه بما لم يستطع معاوية ردَّه، ومن طريف ما رواه المامقاني أيضاً أنه قيل: (إنه – أي الأحنف – كان يرى رأي العلوية، ووصل الحبَّاب بثلاثين ألف درهم وكان يرى رأي الأموية، فصار الحبَّاب إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين تعطي الأحنف – ورأيه رأيه – خمسين ألف درهم، وتعطيني – ورأيي رأيي – ثلاثين ألف درهم؟ فقال: يا حبَّاب إني اشتريت بها دينه، فقال الحباب: يا أمير المؤمنين تشتري منِّي أيضاً ديني، فأتمها له وألحقه بالأحنف، فلم يأت على الحبَّاب أسبوع حتَّى مات، وردَّ المال بعينه إلى معاوية)، وللخبر رواية موجزة في تاريخ الطبري ٢١١/٣.

وليس في المنصوص التي وقفت عليها ما يشير إلى أن معاوية استطاع شراء دين الأحنف، ولكن يبدو أنه كان يحرص بين حين وآخر على لقاء وجوه العراق لإبقائهم تحت نظره، وكبح جماح أي تحرك يمكن قيامهم به، وقد التقى الأحنف كما التقى غيره في غير مناسبة، ويبدو أنه كان شديد الكراهية له، بسبب معرفته لولائه، ولم يستطع تصفيته خوفاً من قيام حرب قد لا تحمد عقباها، أو تأريث فتنة قد يصعب إطفاؤها، يضاف إلى هذا فإن الأحنف كان يزداد رفعة وسموّاً بين العراقيين وأصبح من الصعب التخلص منه، وإذا كان من قبل وجه رهطه بني سعد فقد أصبح وجه تميم البصرة قاطبة. ذكر ابن خلكان في وفياته ٢/ ٥٠٠ أنه دخل على معاوية بعد أن استقر له الحكم، فقال له: (والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلاّ كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة، فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فتراً ندنُ منها شبراً، وإن تمش إليها نهرول إليها، ثم قام فخرج. وكانت أخت معاوية من وراء الحجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي يتهدد ويتوعد؟ قال: هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب).

ولم تنحصر كراهية الأحنف بمعاوية، وإنما تعدته إلى جميع بني أمية، حدَّث أحدهم ابن سعد في طبقاته فقال: (كنت قاعداً عند الأحنف بن قيس، إذ جاء كتاب من عبد الملك يدعوه إلى نفسه فقال: يدعوني ابن الزرقاء إلى ولاية أهل الشام والله لوددتُ أن بيني وبينهم جبلاً من نار من أتانا منهم احترق ومن أتاهم منَّا احترق فيه).

ولعل خير دليل على صحة ما ذهب إليه معاوية حول مكانة الأحنف بين التميميين أنه كتب إلى زياد – على ما جاء في عيون الأخبار ١/٢٢٧ – يطلب منه أن ينظر (رجلاً يصلح لثغر الهند) لتوليته فكتب إليه: (إن قبلي رجلين يصلحان لذلك، الأحنف بن قيس وسنان بن مسلمة الهذلي، فكتب إليه معاوية: بأي يومي الأحنف نكافيه أبخذلانه أم المؤمنين أم بسعيه علينا يوم صفين، فوجه سناناً)، ولكن زياداً الذي عرف المنزلة التي بلغها الأحنف بين العراقيين خاصة، وفي الشرق الإسلامي عامة، كتب إلى معاوية بعد أن وجَّه سناناً للولاية: (إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضرُّه العزل)، والرواية السابقة تبين مكانته ومنزلته وخطره، كما تبين ما يكنُّه له معاوية من كراهية.

وروى ابن عبد ربه في العقد ٢/٢٥٩ أن هشام بن عبد الملك قال لخالد بن صفوان: (بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ قال: إن شئت أخبرتك بخَلَّة، وإن شئت بخلَّتين، وإن شئت بثلاث، قال: فما الخَلَّة؟ قال: كان أقوى الناس على نفسه، قال: فما الخلتان؟ قال: كان مُوَقِّي الشرَّ، ملقِّي الخير. قال: فما الثلاث؟ قال: كان لا يجهل ولا يبغي ولا يبخل).

ومما ذكره ابن قتيبة في عيونه ١/٢٢٨ عن مكانته أنه وفد على معاوية ذات مرَّة، وفي ذات الوقت وفد المنذر بن الجارود، وهو من وجوه أهل العراق، فخرج الأحنف على قَعُود وعليه بَتٌّ من صوف، إذ لم يكن يعبأ بمظهره – وكنَّا قد رأيناه من قبل في مجلس عمر بن الخطاب ببتِّه أيضاً – أما المنذر فقد تهيَّأ لهذه الوفادة وتزين، ولكن الذي حدث في الطريق يؤكد ما ذهبنا إليه، قال الأصمعي: (فكلما مرَّ المنذر قال الناس: هذا الأحنف، فقال المنذر: أراني تزينت لهذا الشيخ)، وهنا

تصدق أيضاً مقولة خالد بن صفوان فيه حين قال: (كان الأحنف يفرُّ من الشرف والشرف يتبعه).

ولقد رأيناه في مجلس معاوية غير مرَّة كان فيها يدنيه ويقربه لا حبّاً به، وإنما حرصاً على تحييده وسلِّ كراهيته، وكنا نراهما كفرسي رهان، بل كنا نرى الأحنف هو الذي يعلو، ومعاوية هو الذي يسفل، ورأيناه مسموع الكلمة على الرغم من الكراهية التي يكنها معاوية له، وعلى الرغم من إصرار الأحنف على الولاء للإمام علي الذي ما كان يكتمه إن رأى ضرورة في عدم كتمانه، ذكر ابن عبد ربه في عقده ٤ / ٣٠ عن الشيباني عن أبي الحباب الكندي عن أبيه (أن معاوية بن أبي سفيان بينما هو جالس وعنده وجوه الناس إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، فكان آخر كلامه أن لعن عليّاً، فأطرق الناس)، إلا أن الأحنف لم يستطع الإطراق بعد أن حقَّ الحقُّ، نعم كان حليماً حكيماً، ولكن من غير ضعف، فهو القائد الشجاع الذي استطاع هزيمة جيش لوحده في أيام الفتح.

قال الأحنف لمعاوية الذي لابد أن يكون لعنُ لشامي عليّاً في مجلسه بأمرٍ منه، ولا شكَّ أن المجلس كان مكتظّاً بوجوه أهل العراق أيضاً، ومن أطرق منهم هم من أصحاب الإمام أو من محبيه، وفي مقدمتهم الأحنف أحد قادة جيشه المبرزين في حرب صفين: (يا أمير المؤمنين إن هذا القائل ما قال آنفاً لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم فاتَّقِ الله ودع عنك عليًّا، فقد لقي ربَّه، وأُفرِدَ في قبره، وخلا بعمله، وكان والله — ما علمنا — المُبرَّز بسبقه، الطاهر خلقه، الميمون نقيبته، العظيم مصيبته).

ولم يستطع حليم بني أمية أن يبلعها وهو في سلطانه ومجده، فقال له: (يا أحنف، لقد أغضيتَ العين على القذى، وقلت بغير ما ترى، وأيِّمُ الله لتصعدنَّ المنبر فلتلعنه طوعاً أو كرهاً).

ولم يضعف القائد الشجاع، وهو وسط جند أهل الشام، تحفُّ بمعاوية القوَّة ولسلطة، ورأى أن المقام ليس مقام حلم أو مداهنة، وهو إن فعلها ما قامت له قائمة لذا قال لمعاوية: (إن تعفني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري به شفتاي أبداً)، ولكن معاوية عزَّ عليه أن يتراجع عن قراره، وأصرَّ على رأيه، وقال: (قم فاصعد المنبر) ولم يتراجع الأحنف، ولم تخذله عزيمته، ولم يرهبه سلطان معاوية، بل إنه في حكمته وسياسته وضع معاوية في مأزق، إذ قال له: (أما والله مع ذلك لأنصفنَّك في القول والفعل)، فقال: (وما أنت قائل يا أحنف إن أنصفتني) قال: (أصعد المنبر فأحمد الله بما هو أهله، وأصلي على نبيه ثم أقول: أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن عليًّا، وإن عليّاً ومعاوية اختلفا فاقتتلا، وادَّعى كلٌّ منهما أنه بُغِيَ عليه وعلى فئته، فإذا دعوت فأمِّنوا رحمكم الله، ثم أقول: اللهم العن أنت وملائكتك وأنبياؤك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كثيراً، أمِّنوا رحمكم الله، يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب نفسي).

هنا عاد معاوية عن غيه وغير لهجته، وحكَّم دهاءه، وقال: (إذن نعفيك يا أبا بحر)، وقد نقل كل ذلك ابن عبد ربه في العقد ٤/ ٣٠، وهو في الوفيات ٢/ ٥٠٥ أيضاً، كما نقله النويري في نهاية الأرب ٧/ ٢٧٣.

الشعرة التي لم تنقطع

كانت الشعرة بين معاوية والأحنف متوترة على الدوام حينما يلتقيان، ولكنها لم تنقطع، فما تكاد حتى يرخيها معاوية، ومما يذكر أنه عدَّدَ على الأحنف ذنوبه في إحدى وفاداته عليه، ولكن الحليم المحنك عرف كيف يوظف الموقف لصالحه، فلم ينكرها، أو يعتذر عنها، ولم يظهر خوفاً أو جبناً، وإنما عالج الموقف بحكمة وشجاعة مشوبة بترغيب وترهيب، ولعله أدخل الخوف في نفس معاوية، إذ قال له بلغة السياسي البارع: (لم تردُّ الأمور على أعقابها؟ أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن مددت شبراً من غدر لنَمُدَّنَّ إليك باعاً من خَتْر- غدر وخديعة - ولئن شئت لتستصفينَّ كدر قلوبنا بصفو حلمك، قال معاوية: فإني أفعل)، وقد ورد الخبر في العيون ٢/ ٢٣٠ والعقد ٤/ ٢٩١، وعلى هذا فهو ملتزم بعهده لمعاوية، بشرط أن يلتزم الآخر بعهده أيضاً، حتى أن ابن مفرغ يوم هجا عباد بن زياد وعَرَّض بمعاوية بسبب إلحاقه زياد بأبيه، ترك جيشه، وعاد إلى البصرة، واستجار بالأحنف، ولكنه لم يُجِرْهُ كما ذكر الطبري في تاريخ ٣/ ٢٥٧ وقال له: (إنا لا نُجيرُ على ابن سميَّة)، وقد ورد مثل هذا في الوفيات ٦/ ٣٤٩.

كان معاوية يعرف حقَّ الأحنف ويقدِّر منزلته لذا غيَّر من سياسته معه، فأخذه باللين وشَرَّفَ مجلسه، فكان أول رجل يؤذن له بالدخول عليه، وقد ذكر ذلك الجاحظ في بيانه ٢/ ١٥٦، ٤/ ٧٠ وأكده ابن عبد ربه بعقده مرتين أيضاً في ١/ ٨٧، وفي ٣/ ١٠، ومن طريف ما ذكره الجاحظ أن معاوية أذن للأحنف ثم أذن لمحمد بن الأشعث، ولكن الأخير أسرع في مشيته فتقدم الأحنف، ودخل قبله كي

يكون أقرب إلى معاوية منه مجلساً، وقد لحظ معاوية ذلك، وعلى الرغم من أن ابن الأشعث كان يحتل منزلة خاصة في البلاط الأموي، فإن معاوية قال له مؤنباً: (لقد أحسست من نفسك دُلاً، إني لم آذن له قبلك، إلا ليكون لي في المجلس، وإنما كما نملك أموركم كذلك نملك تأديبكم، فأريدوا ما يراد بكم، فإنه أبقى لنعمكم، وأحسن لأدبكم)، وقد ذكر مثل هذا الطبري في تاريخه ٢٦٦/٣.

وأزعم أن مجلس معاوية بوجود الأحنف فيه كان مشحوناً بالتوتر في كثير من الأحيان، ولا شك أن معاوية بما عرف عنه من حنكة وسياسة كان يحاول أحياناً تخفيف توتره بمداعبة الأحنف، ومما نقل عن الأصمعي أنه قال له مرة: (يا أحنف ما الشيء الملفف في البجاد؟ فقال هي السخينة يا أمير المؤمنين).

أما معاوية فقد أراد قول الشاعر في هجاء بني تميم:

إذا ما مات ميت من تميم ... فسرك أن يعيش فجئ بزاد

بخبز أو بتمر أو بسمنٍ ... أو الشيء الملفف في البجاد

والبجاد: كساء مخطط من ألبسة الأعراب.

وأما الأحنف فأراد أن يردَّ عليه بما كانت تعيَّر به قريش، إذ كانت تُكثِر من طعام يصنع من الدقيق والسمن يسمى السخينة.

ولم يغير الأحنف من سلوكه الذي شهدناه غير مرَّة فلم أقف على نص أو رواية تشير إلى أنه طلب شيئاً لنفسه، في أية وفادة أو أي مجلس، فإن طلب، طلب لغيره أو لمصره عامة، وكان في طلبه حكيماً باختيار ألفاظه وجُمَله، ومما يذكر أنه قدم مع وفد العراق على معاوية في موسم جدب وقحط، أنهك القوم وأضرَّهم، وأحوجهم إلى العطاء، وكان معاوية قد أمر حاجبه بإبلاغ الوفد أنه عزم عليهم (ألاَّ يتكلم أحد إلا لنفسه) وهو تصرف تقصَّده معاوية إذ لن يكلفه كثيراً إن التزم

به الوفد، ولكن الأحنف وجد لنفسه مدخلاً تخلص فيه من أمره من دون إثارته، فهو لا يريد شيئاً لنفسه، ولكن القحط أضرَّ بالناس، ولابد من طلب الرفد والمعونة، فاتجه لمعاوية بقوله: (لولا عزيمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّة قد دفَّت ونازلة قد نزلت، ونائبة نابت، ونابتة نبتت، كلهم به حاجة إلى معروف أمير المؤمنين)، وهكذا التزم بالأمر فلم يطلب لأحد، وإنما أخبره بأحوال الناس بعبارة عذبة تمسُّ الشغاف، وتحرك العواطف، حتى إذا تمكَّنت ختمها بقوله: (كلهم به حاجة إلى معروف أمير المؤمنين).

موقف الصفوة

ومن المواقف التي تذكر له أنه يوم أراد معاوية أخذ البيعة لولده يزيد في حياة الحسن بن علي ^ سوَّغت جوقة المنافقين والمنتفعين الأمر له، وزمَّرت وطبَّلت، ولكن الأحنف انبرى ناصحاً صادقاً في النصح – على عادته – بحكمة وعقلانية إذ قال كما ورد في كتاب الحسن ابن علي لتوفيق أبو علم ٢٦٥ : (قد علمت أنك لم تفتح العراق عنوة، ولم تظهر عليها قعصاً، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ليكون له الأمر من بعدك، فإن تفِ فأنت أهل الوفاء، وإن تغدر تعلم والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً، وأذرعاً شداداً، وسيوفاً حداداً، إن تدنُ له شبراً من غدر تجد وراءه باعاً من نصر، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا عليًّا وحسناً منذ أحبوهما)، وسبق أن وقفنا على مثل هذا عند المسعودي في كتابه الإمامة والسياسة، وقال له كما ورد في العيون ٢/٢١١ والعقد ٤/٣٣٩: (أنت أعلمنا بيزيد في ليله ونهاره، وسرِّه وعلانيته، فلا تلقمه الدنيا، وأنت تذهب إلى الآخرة)، ولابد أن كلمة مثل هذه كفيلة أن تبث الرعب في النفس، وكفيلة أيضاً أن تدفع من وجهت إليه أن يعيد النظر بقراره، فهو ذاهب إلى الآخرة لا محالة، وهو ملاقٍ من يحاسبه على ما فعل لا محالة. قال ابن عبد ربه : (فتفرَّق الناسُ ولم يذكروا إلا كلام الأحنف).

ونقل توفيق أبو علم في كتابه السابق الذكر ص ٢٢٦ تكملة للخبر هي قول الأحنف لمعاوية (اعلم أن لا حجَّة لك عند الله إن قدَّمت يزيد على الحسن والحسين، وأنت تعلم ما هما، وإلى ما هما، وإنما علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

وموقف آخر أصعب من سابقه، هو موقف صفوة المؤمنين من أمر تولية يزيد، جاء في البيان ١/ ٢١١ والعيون٢/ ١٨٠ والعقد٢/ ٤٧٢، ٤/ ٣٣٨، والوفيات ٢/ ٥٠٠ أن الناس تكلموا عند معاوية في ابنه يزيد بعد أن أخذ البيعة له، والأحنف ساكت لا يتكلم، ولعل معاوية ما كان يهمه كلام الغوغاء وجوقة المنافقين والمنتفعين في ذلك المجلس بأمر بيعة يزيد قدر ما يهمه أن يسمع رأي الأحنف سيدّ أهل العراق، فقال له معاوية: ما لك لا تقول يا أبا بحر، فقال كلمة صدق لا يراد بها باطل: (أخافك إن صدقت، وأخاف الله إن كذبت) وفي رواية أخرى في العقد ١/ ٧٦: (إن صدقناك أسخطناك، وإن كذبناك أسخطنا الله، فسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله).

كان الأحنف لا يرهبه أحد، وفي الوقت نفسه لم يكن متهوراً مندفعاً، وكان يتوقّى الشرَّ بكل طريقة، وما زلنا نتذكر قوله: (إن رأيت الشَّرَّ يتركك فاتركه)، وقد ورد في العقد ١/ ١١٩، وكان يقلِّبُ الأمور ويزنها قبل أن يقرر أي قرار، ويهرب من الفتنة ولا يندفع نحوها، بل يحاول جاهداً دفعها بعقلٍ ورويَّة لأنه يعلم أن (أسرع الناس إلى الفتنة أقلهم حياءً من الفرار) على حدِّ قوله.

إن تكلمت خالفتهم

وكان الأحنف صبوراً حتى ضرب المثل بصبره وقوَّة تحمله، وقد قال مرَّة: (من لم يصبر على كلمة سمع كلمات، وربَّ غيظ تجرَّعته مخافة ما هو أشدُّ منه)، وأنشد مرَّة كما ورد في العقد ٢/٢٦١:

رضيت ببعض الذل خوفَ كذلك بعضُ الشرِّ أهون من

فإن اضطرَّ إلى نزع لباس الصبر كان أحدَّ من شفرة السيف على خصمه، ويوم خطب زياد بن أبيه خطبته البتراء المشهورة في البصرة لم يستطع أحد من المستمعين أن يردَّ عليه، باستثنائه إذ قال: (إنما المرء بحِدِّه، والسيف بحدِّه، والجواد بشدِّه، وقد بلَّغك حِدُّك أيها الأمير ما ترى، وإنما الحمد بعد البلاء، والثناء بعد العطاء، وإنَّا لا نُثْني حتى نبتلي، فأوِّل خيراً نثْنِ به)، وقد ورد الخبر في البيان ٢/٩٥ والعيون ٢/٢٤٢ وذيل الأمالي ١٨٦ والعقد ٤/١٠٨.

ومن حكمه الطريفة التي لم تخطر على بال، ما ذكر عنه وهو في مجلس زياد وكان الحرس قد اقتادوا لصّاً إلى مجلسه، فانتهرت الجماعة التي في المجلس اللصَّ وقالت له: أصدق الأمير، فما كان من الأحنف إلاَّ أن قال: (إن الصدق أحياناً مَعْجَزةً)، فأعجب ذلك زياد، وقال له: جزاك الله خيراً. أما صفوة السوء فإن الأمير لم يكلفهم بالتحقيق مع السارق، كما أنهم لم يحاولوا درء الحدود بالشبهات، أو يكونوا محضر خير يدفع الخطر عن المسكين، إذ كيف يصدق الأمير، ولاسيما إن صدقه قطعت يده. فأرسلها الأحنف حكمة وأية حكمة (إن الصدق أحياناً معجزة!).

كان زياد يعرف قدر الأحنف، وقد رأينا رأيه فيه يوم كتب لمعاوية (إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل)، وكان يقرب مجلسه ويدنيه، وبعد وفاته آل أمر العراق من بعده إلى ولده عبيد الله، فلم يعرف حقَّ الأحنف، وأقصاه من مجلسه، وكان آخر من يؤذن له بالدخول عليه، ولكن الشيخ الوقور لم يحتج على تصرف عبيد الله، ويوم وفد ابن زياد بأهل العراق على معاوية، أدخل الوفد الذي رافقه على معاوية بحسب مراتبهم عنده، فكان الأحنف آخر الداخلين، فلما دخل عظَّمه معاوية وأدناه وأكرمه كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٣١٢/٨ (وأجلسه معه على الفراش، ثم أقبل عليه يحادثه دونهم، ثم شرع الحاضرون في الثناء على ابن زياد والأحنف ساكت، فقال له معاوية: مالك لا تتكلم؟ قال: إن تكلمت خالفتهم، فقال معاوية: أشهدكم أني قد عزلته عن العراق، ثم قال لهم: انظروا لكم نائباً، وأجلهم ثلاثة أيام، فاختلفوا اختلافاً كثيراً، ولم يذكر أحد منهم بعد ذلك عبيد الله، ولا طلبه أحد منهم، ولم يتكلم الأحنف في ذلك كلمة واحدةً مع أحدٍ منهم، فلما اجتمعوا بعد ثلاث أفاضوا في ذلك الكلام، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: تكلم، فقال له: إن كنت تريد أن تولي فيها أحداً من أهل بيتك، فليس فيهم من هو مثل عبيد الله، فإنه رجل حازم لا يسد أحد منهم مسدَّه، وإن كنت تريد غيره فأنت أعلم بقرابتك، فردَّه معاوية إلى الولاية، ثم قال له بينه وبينه: كيف جهلت مثل الأحنف؟إنه هو الذي عزلك وولاَّك وهو ساكت، فعظمت منزلة الأحنف بعد ذلك عند ابن زياد جدّاً)، وقد ذكر مثل هذا الطبري في تاريخه ٢٥٧/٣، وابن خلكان في وفياته ٥٠٣/٢ وزاد عليه.

موقفه من ثورة الحسين

وتبدو على موقفه من ثورة الإمام الحسين قتامة تدعو إلى التأمل، إذ إنه لم يندفع لنصرته على الرغم من أن الحسين # كتب له كما كتب لغيره من رؤوس أخماس البصرة، وفي ذات الوقت لم يقف موقف أحد تلك الرؤوس فوشى برسوله، وكان سبباً في استشهاده، واندفاع ابن زياد من فوره إلى الكوفة، مما أدى إلى تخاذل أهلها بعد أن بايعته آلاف مؤلفة منهم، ولعل من أسباب تردُّده في الخروج هي عين الأسباب التي دفعت غير قليل من كبار محبيه وآل بيته إلى تحذيره من غدر العراقيين وعدم خروجهم معه ، يضاف إلى هذا أن يزيد بن معاوية قد أحكم الطرقات بجلاوزته من الذين نشروا الرعب، وساموا محبي أهل البيت سوء العذاب.

وذكر الشيخ اليوسفي الغروي في ٤٥/٥ من موسوعته أن ابن زياد وفد (بأشراف أهل البصرة، ومعهم الأحنف بن قيس التميمي على معاوية، فأخذ معاوية عليهم البيعة لابنه يزيد سنة تسع وخمسين أو ستين)، وأشار في الهامش إلى تاريخ الطبري، وبمراجعة أحداث السنتين فيه لم أقف على نص يفهم منه صراحة مبايعة الأحنف ليزيد، نعم ورد في أحداث سنة تسع وخمسين خبر الوفد الذي مرَّ ذكره، ولكن ليس فيه ما ينبئ عن بيعة، أما في أحداث سنة ستين للهجرة فذكر حول بيعة من وفد مع ابن زياد في ٢٦٠/٣ من تاريخه الآتي: (وفيها كان أخذ معاوية على الوفد الذين وفدوا إليه مع عبيد الله بن زياد البيعة لابنه يزيد)، وليس في الخبر ما يؤكد بيعة الأحنف أو ينفيها، وإن كانت تبدو فيه إشارة لبيعة الوفد الذي رافق ابن زياد، وكان الأحنف فيه سبباً لعزله وإعادته، إلا أن ذلك لا يمنع من بيعته يزيد أسوة بجميع الأمصار التي بايعت، وقد أشار الطبري في ٣٦٦/٣ من

تاريخه إلى ذلك، ولكن ليس في إشارته ما يدل على أن البيعة تمت قبل توليه الحكم أو بعده.

الحياد الذي أملته الضرورة

ولم أقف على ما يشير إلى وفادةٍ للأحنف على يزيد بن معاوية أو لقاء به بعد أن تولّى الحكم، ويبدو أن السبب وراء ذلك يعود إلى موقفه منه حينما أراد معاوية أخذ البيعة له، ويغلب على الظن أن ذلك كان بعلمِه وحضوره، فلما ولي الأمر ابتعد الأحنف عن الاتصال به أو بغيره من بني أمية أو بني مروان، بل لم أقف على ما يشير إلى لقائه بولاته أيضاً حتى أن سيرة الأحنف منذ تولي يزيد ولحين وفاته تبدو في غاية الإظلام، ويبدو أن يزيد لم يحتك به أيضاً، فهو يعرف خطره، ومنزلته بين قومه خاصة، وبين سكان العراق عامة. والظاهر أنه اكتفى بمراقبة عبيد الله بن زياد واليه على العراق الذي لم تربطه علاقة حميمة بالأحنف، وقد اتخذ من البصرة مقراً لإمارته في أثناء تهيؤ الحسين للثورة، كما ورد في تاريخ الطبري ٢٥٧/٣ والبداية والنهاية ٣١٢/٦، ولم تنحصر مقاطعة الأحنف ليزيد، وإنما تعدتها لبني مروان من بعد أيضاً، وكأن علاقته بدولة بني أمية قد انتهت من حين وفاة معاوية.

كان الأحنف – كغيره من وجوه أهل العراق وغيرهم – على بينة من قوة الدولة وشدة بطشها، وقد اتخذت أغلب الوجوه في ذلك الوقت موقفاً محايداً بانتظار ما تسفر عنه الأحداث، وخاصة بعد تزايد بطشها، حتى أن الطبري ذكر في تاريخه ٢٨٠/٣: أن الحسين (كتب مع مولى يقال له سليمان إلى رؤوس الأخماس في البصرة، وهم مالك ابن مسمع البكري، والأحنف بن قيس، والمنذر بن جارود، ومسعود ابن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبيد ... فكل من قرأ الكتاب من أشراف الناس كتمه غير المنذر بن جارود، فإنه خشي – بزعمه – أن يكون دسيساً من قبل عبيد الله، فجاءه بالرسول من العشية التي يريد صبيحتها أن يسبق إلى

الكوفة، وأقرأه كتابه فقُدِّم الرسول فضرب عنقه... ثم خرج عبيد الله من البصرة إلى الكوفة، واستخلف أخاه)، وتريك الرواية مدى الرعب الذي ركب زعماء القبائل ووجوه العراق.

وفي اتجاه ثورة الحسين ذكر ابن قتيبة في عيونه ١/٢١١ رواية أخرى عن موقفه منها، قال: (عن القاسم بن الحسن، عن علي بن محمد، عن سلمة بن محارب، عن السكن قال: كتب الحسين بن علي رضي الله عنهما إلى الأحنف يدعوه إلى نفسه فلم يرد الجواب، وقال: قد جربنا آل أبي الحسن، فلم نجد عندهم إيالة للملك، ولا جمعاً للمال، ولا مكيدة في الحرب)، وعلى الرغم من أن رواية العيون ليس فيها ما يدل على موالاة للأمويين أو لغيرهم، ولاسيما بعد أن عرفنا موقفه من يزيد، وقد بينا أيضاً مدى كراهيته للبيتين الأموي والمرواني، إلا أنه رأى من وجهة نظره أن الأحوال قد تغيرت، وذهب زمن الرسالة، ولابد للحكم من سياسة دنيوية تعتمد على القوة والحيلة والدهاء والمال والسياسة، وهي صفات ليست في بيت النبوة عليهم السلام، ولعله قالها بأسف وحرقة، فهو يرى ما آل إليه أمر المسلمين، ويرى ما تلاقيه الأمة من بطش الدولة وطغيانها، بعد أحكمت قبضتها على كل شيء، حتى ما عاد أحد يجرؤ على النقد أو الاحتجاج، أما مصير من يفكر بالثورة أو مجرد الانحياز فهو معروف، وقد رأينا كيف أن الرعب دفع المنذر بن جارود إلى تسليم رسول الحسين إلى عبيد الله بن زياد، وتقرأ من خلال الرواية أن وجوه البصرة بما فيهم الأحنف قد كتموا خبر الرسول، وقد يظن أن كتمانهم الخبر دليل على تأييدهم ما جاء برسالة الإمام، ولكن افتضاح أمرها حال من دون التفكير بمناصرته خوفاً من سطوة السلطة وجبروتها، وبعد تنصل من بايعه من بيعته ومشاركة غالبيتهم في جيش ابن مرجانه الذي ذهب

لقتاله، فقتله ومثل بجسده، وقتل آل بيته عليهم السلام في أبشع مجزرة عرفها التاريخ الإسلامي.

الفتنة التي كادت تحرق البصرة
وموقف الأحنف منها ومن الأحداث بعد هلاك يزيد

ما إن حلت سنة ٦٤هـ حتى ازداد اضطراب الأحوال في غالبية البلاد الإسلامية عامة، وفي الحجاز والعراق خاصة، ففيها هلك يزيد بعد وقائع سودت تاريخه في مقدمتها مصرع الحسين وآل بيته عليهم السلام، وواقعة الحرَّة التي استباح فيها قائد جيشه مسلم بن عقبة المري المدينة وقتل منها مقتلة عظيمة، وتوجه من بعد إلى بيت الله الحرام يريد عبد الله بن الزبير للقضاء على ثورته، ولكنه هلك في الأبواء فتولَّى قيادة جيش يزيد الحصين بن نمير.

ويبدو من نصوص ذكرها الطبري أن العلاقة بين عبيد الله بن زياد ويزيد أصابها شيء من الفتور بعد جريمة مصرع أبي عبد الله الحسين وآل بيته عليهم السلام، إذ حمَّله وزرها في محاولة لدفع أثر وقعها على حكمه، وقد أشار إلى مثل هذا الغروي في موسوعته ٦/٢٣٢ – ٢٣٤ أثناء حديثه عن الرسالة التي استدعى فيها يزيد محمد بن الحنفية رضوان الله عليه، وقدومه عليه رفقة أبنائه. ويبدو أن ابن زياد لم يكن راضٍ على تولية معاوية بن يزيد الحكم كما رجَّح الغروي في المصدر السابق، أو لأنه نظر إلى اضطراب الأحداث في جميع الأمصار فرجح عنده التأنّي لحين معرفة الطريق الذي ستركبه موجتها كي يسير باتجاهها، وخاصة بعد اضطرابها في بلاد الشام، والظاهر أيضاً أن جميع وجوه البصرة ساروا في ذلك الاتجاه، وكانوا في ريبة من أمرهم، كما يبدو من مجمل النصوص التي ذكرها الطبري في ٣/٣٦٤- ٣٧٨ من تاريخه، ولكن اضطراب الأحوال كان أقوى منهم فوقع في البصرة ما وقع من حرب بين الأزديين والتميميين، ومن تمكن أنصار ابن الزبير

منها، مما أدى إلى هرب ابن زياد، بعد أن خذله البصريون، فسهلوا بذلك الدخول لمصعب والياً عليها لأخيه عبد الله.

ويبدو أن السنوات الطوال التي قضاها الأحنف وسط الأحداث السياسية والعسكرية قد أنهكته، وخاصة بعد أن تجاوز السبعين بكثير، بل يبدو من الروايات التي ذكرها الطبري حول أحداث سنة أربع وستين للهجرة التي شهدت هلاك يزيد بن معاوية، وامتداد ثورة عبد الله بن الزبير، ونشوب ثورة المختار في الكوفة، أن الأحنف لم يكن راغباً في المشاركة بجميع وقائعها، ويوم تصاعد الموقف بين الأزد وتميم كان الأحنف في غاية التململ في المشاركة فيه، وكان راغباً بدفعه بأية طريقة ممكنة، حتى أن إحدى النسوة جاءته بمجمر وقالت له: (ما لك وللرياسة! تجمَّر فإنما أنت امرأة) كما ذكر الطبري في تاريخه ٣٧٢/٣، ولكن ذلك لم يغير موقفه إلا بعد أن جاءوه بغير بينة على تمادي الأزديين في الاعتداء.

ولم نره مشاركاً في الأحداث التي دفعت إلى بيعة عبد الله بن الزبير في البصرة أيضاً، وكان تأييده لها بعد اصطفاف البصريين بجانبها، ويغلب على الظن أنه كان في ريب على حياته منها، بسبب قديم موقفه من الزبير بن العوام، وليس بين النصوص التي وقفت عليها ما يدل على لقائه بمصعب قبل دخوله البصرة، فلما استتبت الأمور فيها ووثوقه منه التقاه فعاتبه الزبير — إذ إن التاريخ مازال يذكّر مصعباً بموقف الأحنف من أبيه الذي قتله ابن جرموز واحتزَّ رأسه — فقد ورد في العيون ٢٠/٢ والعقد ٣٢٣/٨ أنه عاتب (الأحنف بن قيس على شيء بلغه عنه، فاعتذر إليه الأحنف من ذلك ودفعه) ولكن مصعباً قال له: (أخبرني بذلك الثقة)، وعلى عادة الأحنف الحاضر الجواب أجابه بقوله: (إن الثقة لا يبلغ، وقد جعل الله السامع شريك القائل، فقال: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾)،

ولا شك أنه كان للأحنف دور في مصرع الزبير، وهو بالتأكيد ليس بخاف على ولده مصعب، وحتى لو لم يكن له دور في مصرعه فإنه يتحمل وزره، وما كان ذلك بخاف على البيت الزبيري، ويبدو أن الأحنف قد ارتبط من بعد بعلاقة خاصة بمصعب أملتها الأحداث.

ولم يكن الأحنف لوحده قد اصطف مع آل الزبير من بعد، وإنما سبقه غالبية رجالات الحجاز والشام والعراق، ويوم أطلق ابن زياد المختار من سجنه بوساطة عبد الله بن عمر زوج أخته عند يزيد بن معاوية كما ذكر الطبري في تاريخه ٤٠١/٣ انحدر إلى مكة، فكان مع عبد الله بن الزبير، ثم تركه وعاد إلى الكوفة لأن عبد الله لم يوله على إحدى الإمارات التي خضعت له كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ٢ /١٧٤.

فتنة البصرة ودور الأحنف في إخمادها

اضطربت البصرة بعد أن تناهى إلى أسماع أهلها هلاك يزيد، وقام عبيد الله بن زياد خطيباً فيهم فأعلمهم بهلاكه واختلاف أهل الشام، وطلب منهم اختيار رجل لحين انجلاء الأمور، فمدحوه وبايعوه، ولما انصرفوا قالوا: (لا يظن ابن مرجانة أنا نستقاد له في الجماعة والفرقة، كذب والله ثم وثبوا عليه)، ولم تدم إمارته هذه طويلاً، وبدأ سلطانه يضعف شيئاً فشيئاً، وفي هذه الأثناء دخل البصرة سلمة بن ذؤيب يدعو إلى عبد الله بن الزبير، فكثر أتباعه كثرة دفعت غالبية أهل البصرة بالقعود عن ابن زياد، الذي اضطر حينما حاصرته الأحداث إلى التواري والنزول في دار مسعود بن عمرو كبير الأزد في حيلة اضطرت مسعود إلى إدخاله في جواره على الرغم من عدم رغبته في اتخاذ ذلك الموقف إذ دخل داره، وأكل من طعامه، وادَّعى أن زوجته قد أجارته، فأجاره، ثم بايعت البصرة بعد أخذ وردّ عبد الله بن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب الملقب ببَّة لحين انجلاء الأمور، وكاد يقتل عبيد الله بن زياد فيها لولا تسارع الفتنة التي ضربت جذورها بين الأزد بزعامة مسعود ومن حالفهم وتميم بزعامة الأحنف ومن حالفهم، وأدَّت إلى قيام الحرب بينهما، كما ذكر الطبري ٣/٣٦٦ – ٣٦٨ من تاريخه، وانقسمت البصرة على فريقين، فريق مع مسعود، وآخر مع الأحنف الذي أسند قيادة تميم لعبس بن طلق السعدي، بعد أن نزع عمامته وعقدها له لواءً على حدٍّ تعبير الجاحظ في بيانه ٣/١٠٥، وذكر الطبري في تاريخه ٣/٣٧٢ أنه أراد (في أول الأمر أن يعقد القيادة لعباد بن حصين، فلما لم يجده عقدها لعبس).

كانت الأزد ومن حالفها من ربيعة قد تمكنوا من مداخل طرقات البصرة، إلا أن تميماً أجلتهم عنها إلى باب المسجد الجامع، وفي هذه الأثناء كان زعيم الأزد مسعود بن عمرو على المنبر يحض قبيلته ومن حالفها على حرب تميم ومن حالفها، ولكن رجال تميم استطاعوا اقتحام المسجد وإنزال مسعود من على المنبر وقتله.

ويغلب على الظن أن دواعي هياج الفتنة لم تكن بسبب موقف مسعود من عبيد الله بن زياد فحسب، وإنما لقديم العداوة بين التميميين والأزديين بسبب الأحداث السياسية التي مرت بها البصرة، إلا أن قوة الدولة وهيبتها استطاعت إخمادها، ولكنها وجدت منفذاً لها بعد موت يزيد وتنازل ولده، وانفلات الأمر من أيدي الأمويين وظهور قوة جديدة مثلها عبد الله بن الزبير والمختار الثقفي.

حكمة الأحنف في عودة الأمن إلى البصرة

ورأى الأحنف أن من الحكمة عودة الأمن إلى البصرة ولاسيما بعد استفحال أمر الخوارج الذين وقفوا على حدودها لأهلها بالمرصاد، فقرَّر إنهاء النزاع بين الفرقاء مهما كانت التكاليف، فجمع الأزد وربيعة، وقال: (يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصِّهر، وأشقَّاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، وأيدينا على العدو، والله لأزد الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام، فإن استشرى شنآنُكم، وأبى حسك صدوركم ففي أحلامنا وأموالنا سعة لنا ولكم)، ولم يكتف بذلك على ما ورد في البيان ١٢٧/٢ وإنما رهن نفسه عند الأزديين إلى أن استطاع أن يدفع من ماله جميع ديات القتلى، فأعاد الأمن إلى المدينة والألفة بين الفريقين المتصارعين.

وبسبب من تفاقم خطر الخوارج انعقد الأمر على أن يقود الأحنف جيشاً لمحاربتهم، ولكنه رشَّح أزديّاً لقيادة الجيش، وكأنه أراد أن يستلَّ بقية العداوة من نفوس الأزديين، فكان له ما أراد كما ذكر الطبري في تاريخه ٤٢٩/٣، إذ تولى القيادة المهلب بن أبي صفرة الذي استطاع كبح جماح الخوارج وصدَّ هجماتهم ولاحقهم وأضعفهم، بل استطاع نسله تولي ولايات كثيرة لعقود عدة في المشرق والمغرب في لدولتين الأموية والعباسية.

الطريق إلى النهاية

كما عرف الأحنف بحنكته السياسية، ومواقفه الشجاعة الجسورة التي تصعب على الحصر، ومكانته السامية، وحلمه، وكرمه، ومكارم أخلاقه التي تركها وراءه دروساً لا يستغني عنها أحدٌ، فقد عُرِفَ أيضاً بتمسكه بالدين الذي سَحَرَهُ منذ أن سمع به أول مرَّةٍ، فاعتنقه عن بيِّنةٍ وبصيرةٍ، حتى تغلغل في كيانه، وتشرَّبه، وسار على هديه، وتمسك بقيمه، ودعا لها، وترجمها قولاً وفعلاً إلى أن وافاه أجله، فما استطاعت الدنيا بزخرفها أن تجرفه، وكان بحقٍّ نعم الراعي لقبيلته التي انقادت وراءه، ولم تخالفه في جميع الأحداث التي عصفت بالعالم الإسلامي في قرنه الأول، وقد استحقَّ عن جدارة استغفار الرسول الكريم ﷺ.

وقد تباينت الآراء في الأحنف بعد رحيل أمير المؤمنين ، ولكن مجريات الأحداث تدفع إلى اختلاف مواقف الرجال منها، ولم يكن الأحنف بدعاً في مواقفه بين رجالات العصر، والذي لا يراودني الشك فيه بعد أن رافقته منذ أوائل سنة ١٩٩٨م ولغاية أواخر سنة ٢٠٠٩م أنه كان من الموالين لبيت النبوة، وإن سبب عدم مشاركته في نصرة الحسين يعود إلى ظروف القهر العارمة التي أحاطت بثورته وأدت إلى عدم مشاركة آلاف مؤلفة من الموالين له ، كما سبق تبيان ذلك، وعدم مشاركتهم لا ينزع عنهم ثوب الموالاة، وهي حكمة الله التي أراد أن يعز بها الإسلام وأهله، ويبقي على رسالة سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه شعلة وضَّاءة تنير الدرب للسالكين بدماء الحسين وأهل بيته التي سفكت على أرض كربلاء.

ويبدو أن ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية أثناء ترجمته من أن الأحنف (اتخذ موقفاً معادياً للشيعة، واستطاع أن يطرد المختار من البصرة، ثم تولى قيادة كتيبة جنود البصرة الذين ساروا بأمر مصعب بن الزبير لمهاجمة المختار في الكوفة) فيه خلط ومبالغة وبعد عن الصواب، فلم أقف على نص يؤيد ما جاء فيها، ولم أقف على خبر يؤيد دخول المختار البصرة، ولم أقف على ما يؤيد صراحة اشتراكه في حرب ضد المختار، نعم كان قائداً لقبيلته تميم، كما جاء في كامل ابن الأثير ٤/٢٦٨، أو لخمسها – كما سيأتي – وليس قائداً لجيش البصرة كما جاء في دائرة المعارف، وقد يكون قد انحدر إلى الكوفة رفقة مصعب، ويغلب على الظن أن الأحنف – كعادته حينما تتصاعد الأحداث ولا تتضح الرؤيا، يتخذ موقفاً محايداً بانتظار ما تسفر عنه، وقد تصاعدت في ذلك الوقت، وكادت الرؤيا تنعدم، ولاشك أنه في تلك الفترة قد طعن في السن، ولم يعد ذلك القوي جسداً، ولاسيما أن علله لابد أن تكون قد أنهكت جسده بعد أن تجاوز السبعين بكثير.

ويغلب على الظن أيضاً أن الأحنف لم يكن له موقف من المختار، ويبدو مما ورد في تاريخ الطبري ٣/٤٦٨ أنه قد ارتبط ببيعة لابن الزبير التي ارتبط بها المختار من قبل أيضاً، مما دفعه إلى عدم الخروج معه، وفي ذات الوقت كان من أسباب إنقاذ أصحابه في البصرة بعد أن ضيق عليهم، وبرأيه خرجوا منها إلى الكوفة. ويبدو أيضاً أن المختار قد هيج الأحنف ضده في رسالته التي كتبها، وقد أوردها الطبري في تاريخه ٣/٤٦٩ وهي: (من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس، أما بعد، فويلُ أم ربيعة ومضر، فإن الأحنف مورد قومه سقر، حيث لا يقدرون على الصَّدر، فقد بلغني أنكم تُكذِّبوني، وإن كذبت فقد كذِّب رسل من قَبلي، ولست أنا خيراً منهم)، وإذا كانت النصوص التي وقفت عليها لم تفصح عن مدى علاقة

المختار بالأحنف، فإن رسالته تلك كفيلة أن تدفعه للانحياز ضدَّه، ويوم سار مصعب بن الزبير من البصرة إلى الكوفة لم يكن الأحنف من كبار قادة جيشه، وإنما كان على خمس تميم كما ذكر الطبري في تاريخه ٤٨٤/٣، بل لا يبدو من النصوص التي ذكرها الطبري أنه كان للأحنف كبير شأن أو صغيره في الأحداث التي أدَّت إلى تحرك مصعب بن الزبير باتجاه الكوفة بجيشه.

كما أني لا أستطيع أن أظن به الظنون في محبته الأهل البيت عليهم السلام ولاسيما بعد أن عرفنا موقفه من الإمام علي حيّاً ومَيِّتاً، ومن خلافة الإمام الحسن وصلحه، وكان الشيخ محي الدين المامقاني قد ذهب في استدراكه على ترجمة الأحنف الواردة في تنقيح المقال ٢٩٧/٨ إلى القول: (إن دراسة حياة المترجم تكشف على أنها لم تكن على وتيرة واحدة، ففي حياة عمر بن الخطاب كان سائراً في ركاب السلطة الحاكمة، كما وإنه في زمن تصدي أمير المؤمنين للخلافة كان في ركابه مناصحاً لإمامه مجاهداً تحت لوائه، ثم بعد شهادة أمير المؤمنين لم أقف على ما يظهر ولاءه للإمام الحسن، نعم كان يظهر ولاءه لأمير المؤمنين في مناسبات في مجلس معاوية)، ولكن السيد الخوئي في معجمه ١٦٦/٣ – ١٦٧ عده عن مصادره من أصحاب النبي وأمير المؤمنين والحسن بن علي صلوات الله وسلامه عليهم، وهو في رجال الشيخ الطوسي ٥٧ ممن روى عن أمير المؤمنين، ويبدو أن ما ذهب إليه الشيخ محيي الدين يبتعد عن الواقع وتنقصه الحجة المقنعة فيما أحسب، فقد ألبسه ثوب من يقتنص الفرص ويتربصها لتحقيق مطامعه على الرغم من أنه لم يكن له دور في قيامها، وإذا كان قد وفد على الخليفة عمر بن الخطاب غير مرَّة فهذا لا يعني أنه سائر في ركاب سلطة الخليفة أو سلطة غيره، أما مشاركته في الفتح أو الإمارة، فلم يكن بدعاً بين الصحابة، فقد شارك في الفتح مئات منهم رضوان الله

عليهم، كما شارك نفر غير قليل من خيار صحابة الإمام فيه فتولوا الولايات وقادوا الجيوش، من مثل عمار وأبي ذر وسلمان وغيرهم، لقد كانوا في ركاب الإسلام، وجاهدوا لنشر رسالته السمحة في الآفاق، ومازالت قبورهم تزار في آفاق البلاد التي كتب عليهم الرحيل إليها أو الشهادة فيها.

وذكر أنه لم يقف على ما يظهر ولاءه للإمام الحسن ، كما أخذ عليه عدم نصرته للإمام الحسين على الرغم من كتابته له، ورأى أن تعليق الأحنف على رسالة الإمام من الأسباب التي لا تأخذ بيد الأحنف إلى صف الموالين لآل البيت عليهم السلام. وأخذ عليه أيضاً مناصرته مصعب بن الزبير ضد المختار

أما موقفه من الإمام الحسن فقد رأيناه ينكر على معاوية جعل ولاية العهد لولده يزيد في حياة الإمام الحسن والحسين ^، ويعلن في مجلسه صراحة عن حبه للإمامين وحب العراقيين لهما ^، وكراهيتهم للبيت الأموي، وتهدده إن فعلها بحرب ضروس، وسبق ذكر ذلك، ولعل ما يؤيد وجه نظري أن مصعب بن الزبير حينما انتصر على المختار وحاصر الباقين من جنده في القصر (ضج أهل الكوفة وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بقتلهم أجمعين فاستشار مصعب الأحنف فقال: أرى أن تعفو فإن العفو أقرب للتقوى ...فلما قتلوا قال الأحنف: ما أدركتم بقتلهم ثأراً، فليته لا يكون في الآخرة وبالاً) كما جاء في كامل ابن الأثير ٤/٢٧٤. وكان قد رأس وفد البصرة إليه، كما جاء في البيان ١/٣٠٠، وعلى الرغم من أنه رافق جيش مصعب إلى الكوفة حينما خرج لقتال المختار على ما ورد في البيان ٢/٣٠٢ والعيون ٤/٣٥ وذيل الأمالي ٢٧ والعقد ٢/٢٠٦ وإشارة ابن الأثير في كامله ٤/٢٦٨ وكان على تميم فيه، إلا أنه لم ترد إشارة في المصادر السابقة، أو في غيرها إلى مشاركة واضحة في تلك الحرب، وقد حاول إنقاذ أسرى

جيش المختار كما سبق ذكر ذلك، ولعل المرض غالبه فيها، ولاسيما أنه قد تجاوز السبعين.

ويبدو أن المشاركة في جيش هذا أو ذاك في تلك الفترة لا علاقة لها بولاء لآل البيت عليهم السلام أو لغيرهم، فإبراهيم بن مالك الأشتر وهو من رجال الشيعة المشهرين رأيناه يقود جيش المختار لقتال عبيد الله بن زياد قائد جيش أهل الشام ويقتله على نهر الخازر، كما ذكر ابن الأثير في كامله ٤/٢٦٤، ورأيناه من بعد أحد أبرز قادة جيش مصعب ابن الزبير، بل من أقربهم إليه، وأخلصهم، فقد كشف له غدر قادة جيشه، واتصالهم سرًّا بعبد الملك بن مروان، فترحم مصعب على الأحنف الذي حذَّره غدر أهل العراق، على ما جاء في كامل ابن الأثير ٤/٣٢٥، وبالفعل استطاع عبد الملك أن يقتل مصعباً بعد أن تخلى عنه أغلب قادة جيشه سنة ٧١ للهجرة.

وعلى العادة لم نر الأحنف وافداً على مصعب في حاجة تخصه أو تخص رهطه، إذ إن المصلحة العامة مغلَّبة عنده على المصالح الشخصية، ذكر ابن قتيبة في عيونه ١/١٠٢ أن الأحنف وفد على مصعب يتوسطه في إطلاق سراح قوم حبسهم فخاطبه بقوله: (أصلح الله الأمير إن كانوا حُبسوا في باطل، فإن الحقَّ يخرجهم، وإن حبسوا في حقٍّ فالعفو يسعهم)، وبذا استطاع امتصاص نقمته على المحبوسين، فأطلق سراحهم.

ويبدو أن عبد الله بن الزبير كان يحسب حسابه، ولكلمته وقعها عنده، وقد رأيناه يعزل ولده حمزة عن البصرة ويعيد إليها مصعباً بناء على طلب الأحنف في رسالته التي سبقت الإشارة إليها.

المؤمن عليم اللسان

وعرف أيضاً بتمسكه بدينه، فسار على هديه، وتمسك بقيمه، ودعا لها، وترجمها منذ أن آمن بها قولاً وفعلاً حتى وفاته، فما استطاعت الدنيا بزخرفها وزعازعها أن تجرفه.

وقد استحقَّ عن جدارة وهو في مقتبل الشباب استغفار الرسول الكريم ~ له، إذ قيل: إنه كان سبباً في دخول قبيلة تميم إلى حظيرة الإسلام بعد أن تأخرت عنها إلى حين، وإسلام هذه القبيلة يعني إسلام نسبة لا يستهان بها من العرب، لأنها من أكبر قبائل العرب.

واستحقَّ أيضاً بعد امتحان عسيرٍ ومراقبة يوميةٍ شهادة الخليفة عمر ابن الخطاب فقال عنه: (هو مؤمن عليم اللسان).

واستحقَّ أيضاً شهادة الحسن البصري الذي رافقه جنديّاً، هو وابن سيرين، فعرف سرَّه وعلانيته، وسلوكه بين جنوده، وسيرته في البلاد التي افتتحها فقال فيه: (ما رأيت شريف قومٍ كان أفضلَ من الأحنف).

واستحقَّ ثقة الإمام علي به بعد أن اطلع على سريرته، وصادق نصحه، فكان من قواده الكبار بعد واقعة الجمل، وكان من أبعد أنصاره نظراً أثناء الدعوة إلى التحكيم في واقعة صفين، وكان من أكابر مواليه بعد استشهاده.

وذكر الفيروزآبادي في قاموسه بمادة (حنف) أنه تابعي كبير.

والمتتبع لأقوال الأحنف التي ترجمتها يعرف كيف أعدَّ العدَّة لآخرته، فعلى الرغم من شيخوخته وضعفه، وكثرة الأعباء التي ناء بها، كان كثير الصيام، حتى في تلك الشيخوخة، فقد نقل ابن سعد في طبقاته ٧/٩٥ أنه قيل له: (إنك شيخ كبير،

والصيام يضعفكَ، فقال: إني أعدُّهُ لشرٍّ طويل)، أما عن صلاته وقيامه فقد ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ٣١١/٨ عن يعقوب بن سفيان، أنه (كان كثير الصلاة بالليل، وكان يسرج المصباح ويصلي، ويبكي حتى الصباح)، وذكر أيضاً أنه كان يحاسب نفسه حساباً عسيراً على ما بدر منها إذ كان (يضع إصبعه في المصباح، ويقول: حِسَّ يا أحنف، ما حملك على كذا؟ ما حملك على كذا؟ ويقول لنفسه: إذا لم تصبر على المصباح فكيف تصبر على النار الكبرى)، وقد ذكر مثل هذا ابن سعد في طبقاته ٩٥/٧عن أحد غلمانه.

ويمكن إدراك مدى تفكر الأحنف بآخرته من قوله لرجلٍ رآه ينهى امرأة تبكي ميتاً كما ذكر ابن عبد ربه في عقده ٢٣٣/٣: (دعها فإنها تَنْدُبُ عهداً قريباً وسفراً بعيداً).

وقد رأيناه يقود قومه أيام الفتح بخلق ربَّاني لو لم يجدوه فيه قولاً وفعلاً لما اتَّبعوه قرابة نصف قرن يقودهم حيث شاء، ولقد خطب فيهم مرَّة وهم بخراسان فقال: (يا بني تميم تحابُّوا تجتمع كلمتكم، وتباذلوا تعتدل أموالكم، وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلُّوا يسلم جهادكم)، وكأنه يطلب منهم مقاومة أنفسهم لأنه على بيِّنةٍ من قوله تعلى: ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ فقاوم نفسه أولاً، وأخذها بالشدةِ حتى تمكن منها، وأصبح في هذا الأمر مضرب المثل حتى قال أحدهم فيه: (لم أر أحداً من خلق الله كان أغلب على نفسه من الأحنف)، ثم بعد ذلك طلب من قومه مغالبة أنفسهم.

ثم نزَّه نفسه عن كل ما يشين المؤمن الصالح إذ كان يرى – رحمه الله – أن (لا مروءة لكذوب، ولا سؤدد لبخيل، ولا ورع لسيئ الخلق) وما أصدقه في أوقاتٍ كان يرى نفسه أقل منها بكثير (إن الصدق أحياناً معجزة).

ورأينا من كرم نفسه ما أعاد الأمن إلى البصرة، وحقن الدماء فيها، وأنقذها من حريق فتنة مدمِّرٍ إثر موت يزيد بن معاوية، وانفلات الحكم في البلاد الإسلامية، فدفع جميع ديات قتلى الحرب التي دارت بين قبيلة الأزد ومن شايعها وقبيلة تميم ومن شايعها من ماله الخاص، ولم يكتف بذلك بل دفع نفسه رهينة إلى الأزد إلى أن تُؤدَّى الديَّات إلى أصحابها كما سبق ذكر ذلك، وكان موقفه الإنساني هذا من المفاخر التي احتسبها الفرزدق لتميم كما جاء في بيان الجاحظ ٣٦٦/٣، ٢١٨ وحيوانه ٨٠/٣، وهكذا استطاع بحسن رأيه، ورجاحة عقله إطفاء تلك النار، ثم أعاد الألفة بين القبائل بكلمته التي ألقاها في الأزد ومن حالفها، وبماله الذي بذله بسخاء يصعب على الوصف، ثم وحَّد القبائل لمواجهة عدوها الحقيقي الذي يتربص لها على حدود البصرة.

كان يرى في بذل المعروف، والتفضُّلِ على الأصحاب، والشكر على ذلك منزلة ما بعدها منزلة عند الله فقال: (إن الله جعل أسعد عباده عنده، وأشدهم لديه، وأحظاهم يوم القيامة: أبذلهم للمعروف يداً، وأكثرهم على الأخوان فضلاً، وأحسنهم على ذلك شكراً)، ومن وصاياه التي تدلُّ على سمو أخلاقه قوله: (أحيي معروفك بإماتته).

كان الأحنف كثير التعبُّد، ومن جميل ما يروى من توسُّلاته قوله: (اللهم إن تعذبني فأنا أهل لذلك، وإن تغفر فأنت أهل لذلك) وقد ورد ذلك في البداية والنهاية ٣١٢/٨، وكان من النادر أن يخلو لنفسه والمصحف ليس بين يديه كما ذكر ابن سعد في طبقاته ٩٥/٧ نقلاً عن أحد مواليه.

وكان يكره النفاق والرياء ويذمهما، وقد لمسنا في أقواله أكثر من قول يدل على ذلك، فما زلنا نتذكر قوله: (إن ذا الوجهين لا يكون وجيهاً عند الله)، ومما أثره

ابن سعد في طبقاته عنه (أنه كان يكره أن يصلي في المقصورة)، وكان لا يتخطّى رقاب المصلين قبل خروج الإمام، ولم يُجرِّحْه أحد ممن ترجم له، ومما أطراه فيه ابن كثير في البداية والنهاية ٨/٣١١ قوله إنه كان (ثقة مأموناً).

ومن طريف ما ذكره ابن سعد في طبقاته ٧/٩٤ عن أحدهم أن الأحنف حينما استعمل على خراسان، وأتى بلاد فارس أصابته جنابة في ليلة شديدة البرد (فلم يوقظ أحداً من غلمانه ولا جنده، وانطلق يطلب الماء، فأتى على شوكٍ وشجرٍ حتى سالت قدماه دماً، فوجد الثلج فكسره واغتسل).

وإن أنعمت النظر في أقواله وحكمه التي وثقناها، وقارنتها بسيرته تبين لك مدى عمق إيمان حكيم العرب وحليمهم الأحنف بن قيس.

مصادر البحث ومراجعه

١. الأخبار الطوال، أحمد بن داوّد الدينوري «ت ٢٨٢هـ»، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٦٠م.

٢. الاستيعاب، ابن عبد البر «ت ٤٦٣هـ»، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م.

٣. أسد الغابة ابن الأثير «ت ٤٦٣هـ»، دار الفكر، بيروت ١٩٥٥م.

٤. الأمالي، القالي «ت ٣٥٣هـ»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٥م.

٥. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة «ت ٢٨٦هـ»، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة ١٩٦٧م.

٦. أنساب الأشراف، البلاذري «ت ٢٨٦هـ»، دار المعارف ومؤسسة الأعلمي، بيروت.

٧. البداية والنهاية، ابن كثير «ت ٧٧٤هـ»، مكتبة المعارف، بيروت.

٨. البيان والتبيين، الجاحظ «ت ٢٥٥هـ»، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة بيروت.

٩. تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، الذهبي «ت ٧٤٨هـ» تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٩٧م.

١٠. تاريخ الطبري «ت ٣١٠هـ»، طبعة دار الكتب العلمية، ط الرابعة، بيروت ٢٠٠٨م.

١١. الاستيعاب، ابن عبد البر «ت ٤٦٣هـ»، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٩٩٢م.
١٢. تاريخ اليعقوبي« ت ٢٩٢هـ»، تحقيق عبد الأمر مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ١٩٩٣م.
١٣. تنقيح المقال، المامقاني «ت ١٣٥١هـ»، تحقيق الشيخ محيي الدين المامقاني، مؤسسة آل البيت # لإحياء التراث، قم ١٤٢٤هـ.
١٤. تهذيب التهذيب، ابن حجر «ت٨٥٢ هـ»، دار الفكر، بيروت ١٩٨٤م.
١٥. الثقات، ابن حبان «ت ٣٥٤هـ»، مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند ١٩٧٣م.
١٦. الجمل، الشيخ المفيد «ت ٤١٣هـ»، تحقيق السيد علي مير شريفي، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ١٣٧٤هـ.
١٧. الحسن بن علي، توفيق أبو علم، دار المعارف، ط الرابعة، القاهرة ١٩٩٨م.
١٨. الحيوان، الجاحظ «ت ٢٥٥هـ»، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨.
١٩. دائرة المعارف الإسلامية.
٢٠. ذيل الأمالي، القالي «ت ٣٥٦هـ»، المكتب التجاري، بيروت.
٢١. رجال الطوسي، الشيخ الطوسي «ت ٤٦٠هـ»، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم.
٢٢. سير أعلام النبلاء الذهبي «ت ٧٤٨هـ»، مؤسسة الرسالة، ط التاسعة، بيروت ١٩٩٣م.

٢٣. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد«ت ٦٥٦هـ»، مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٩٥م.
٢٤. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي «ت ٨٢١هـ»، دار الفكر، بيروت.
٢٥. الطبقات الكبرى الطبقات الكبرى، ابن سعد «ت ٢٣٠هـ»، دار صادر، بيروت.
٢٦. العقد الفريد، ابن عبد ربه « ت ٣٢٨هـ»، تحقيق أحمد أمين وآخرين، دار الكاتب العربي للنشر، بيروت.
٢٧. عيون الأخبار، ابن قتيبة «ت ٢٧٦هـ»، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
٢٨. الفتوح، ابن أعثم الكوفي « ت٣١٤ هـ»، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٩. القاموس المحيط، الفيروزآبادي «ت ٨١٧هـ» ط الثالثة، المطبعة المصرية ١٩٣٣م.
٣٠. الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، الذهبي «ت ٦٧٣هـ»، تحقيق محمد عوامة وأحمد الخطيب، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة ١٩٩٢م.
٣١. الكامل في التاريخ، ابن الأثير «ت ٦٣٠هـ»، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.
٣٢. اللباب في تهذيب الأنساب، عز الدين بن الأثير «ت ٦٣٠هـ»، دار صادر بيروت.
٣٣. المحبر، محمد بن حبيب «ت ٢٤٥هـ»، بيروت، المكتبة التجارية.
٣٤. مروج الذهب، المسعودي «٣٤٦هـ»، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت.

٣٥. المعارف، ابن قتيبة« ت ٢٨٦هـ»، تحقيق ثروة عكاشة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نشرته بالأوفست مكتبة الحيدرية ١٤٢٧هـ.
٣٦. معجم البلدان، ياقوت الحموي «ت ٤٣٦ هـ»، دار صادر، بيروت ١٩٥٦م.
٣٧. معجم رجال الحديث، السيد الخوئي، ط الخامسة، ١٩٩٢م.
٣٨. المعجم الكبير، الطبراني «ت ٣٦٠هـ»، تحقيق حمدي عبد المجيد، ط الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٩. معرفة الثقات، الحافظ العجلي، مكتبة الدار، المدينة المنورة ١٩٨٥.
٤٠. المنتخب من ذيل المذيل من تاريخ الصحابة والتابعين – الطبري «ت ٣١٠هـ»، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٤١. نهاية الإرب، النويري «ت ٧٣٣هـ»، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة.
٤٢. وفيات الأعيان، ابن خلكان «ت ٦٨١هـ»، تحقيق د. إحسان عباس، ط الرابعة، دار صادر، بيروت ٢٠٠٥م.
٤٣. وقعة صفين، ابن مزاحم «ت ٢١٣هـ»، تحقيق عبد السلام هارون، ط الثالثة، قم ١٤١٨هـ.